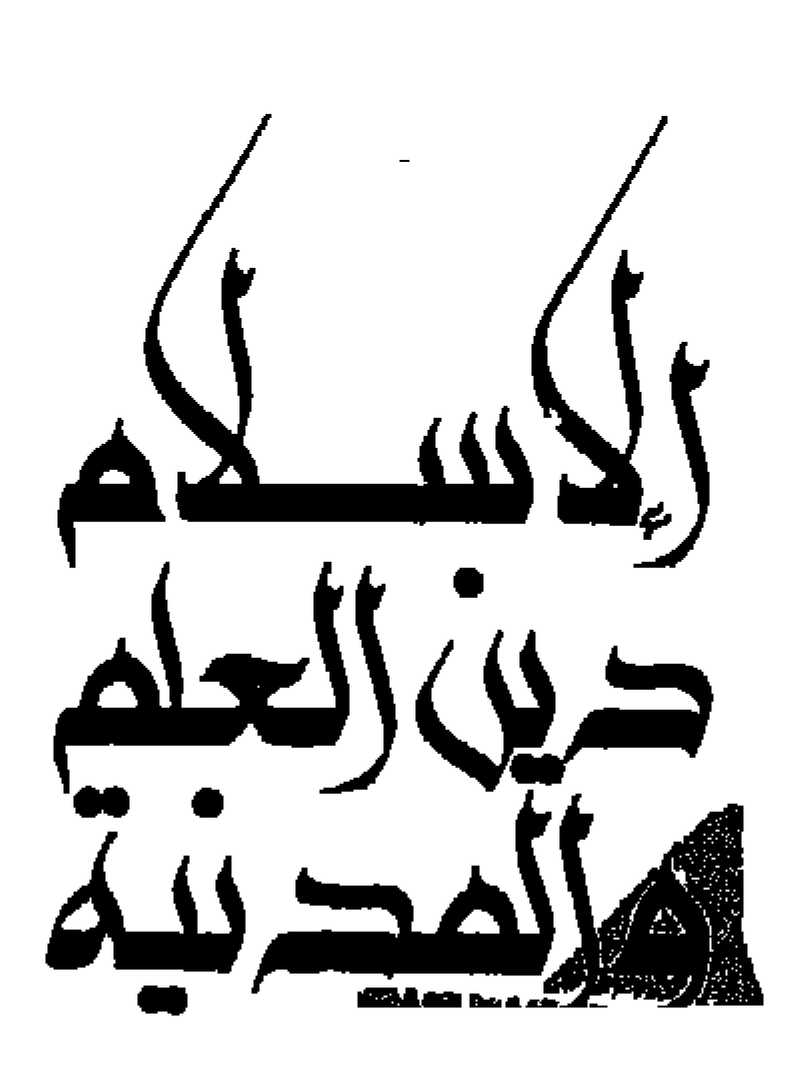
كتاب سينا (١) السياسيّ

الشيخ محمد عبده

الإسلام دين العلم والمدنيّة

دراسة الدكتور عاطف العراقي


الإسلام
دين العلم
والمدنية



سينا للنشر

الناشر: سينا للنشر

المدير المسئول: راوية عبد العظيم

١٨ - ش ضريح سعد - القصر العيني
ص.ب ٢٦٧٤ - القاهرة - ج. م. ع.
تليفون ـــــ ٣٥٤٧١٧٨

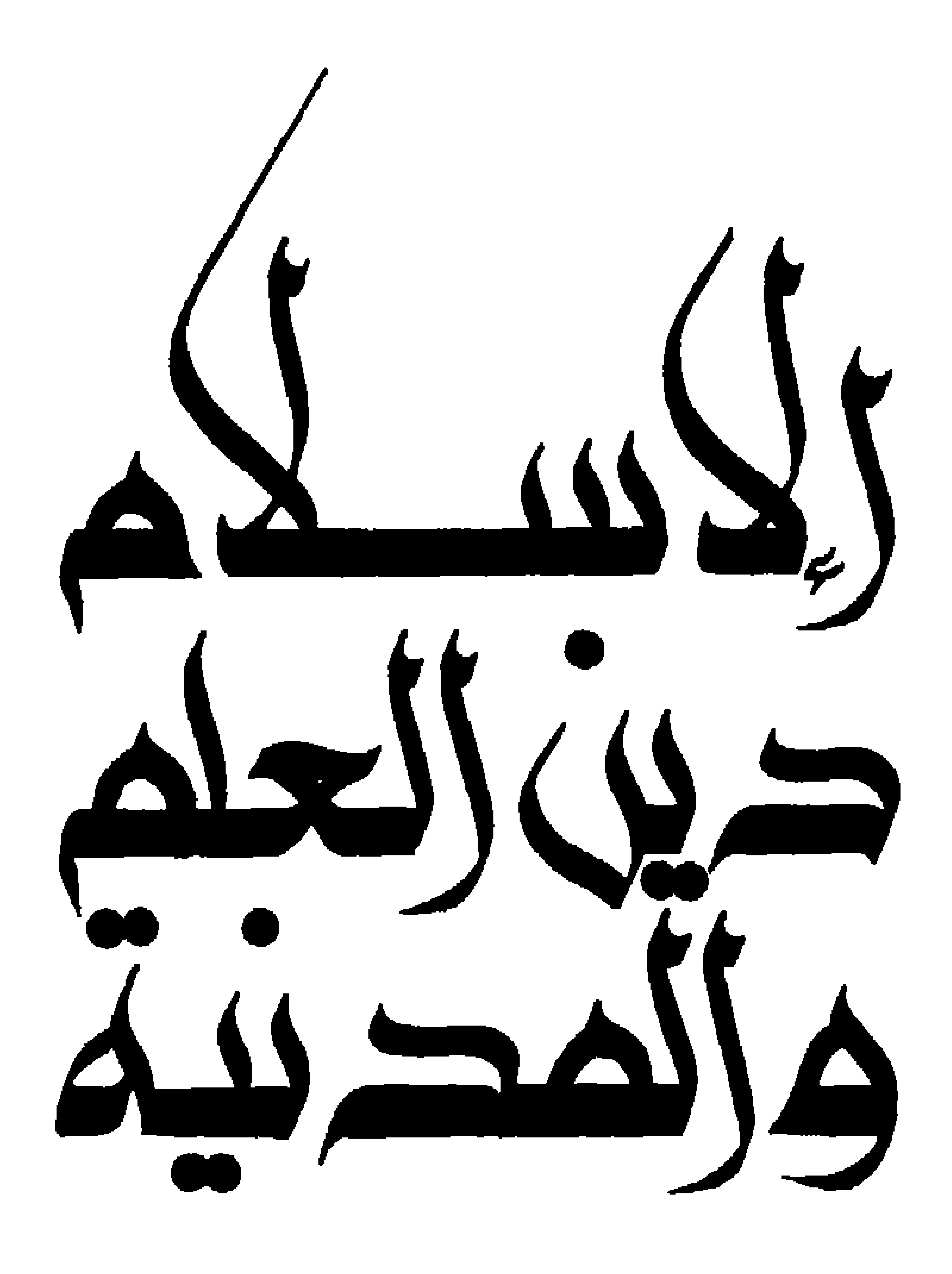
المشرف العام: د. رؤوف عباس

الغلاف والإشراف الفني: عماد حليم

التنفيذ: إيناس حسني

كتاب سينا (١) السياسي

الشيخ محمد عبده



دراسة الدكتور عاطف العراقي

هذه السلسلة .. لماذا؟!

حرصت « دار سينا للنشر » منذ تأسيسها على أن تقدم للقارىء العربى كل جديد .. من منطلق الإيمان برسالة معينة هى المساهمة فى حركة تنوير جديدة ، نرى أن وطننا العربى أحوج ما يكون إليها اليوم .

حقاً كانت هناك حركة تنوير عظيمة فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، حاولت جاهدة أن تقيم الجسور فوق هوة التخلف الحضارى الذى عانت منه أمتنا العربية قرونا عديدة ، بالعمل على المواءمة بين الموروث والمكتسب ، بين « التراث » ومقتضيات العصر . وهكذا طُرح العديد من القضايا بجرأة وإقدام نفتقر إليهما اليوم ، ونوقشت الأفكار والأطروحات الجديدة بأفق متسع وصدر رحب نفتقدهما اليوم .

ولكن النكبات والنكسات التى ألمت بأمتنا وهى تواصل نضالها ضد الامبريالية والصهيونية لعوامل موضوعية لا يتسع المقام لذكرها ، أتاحت الفرصة لدعاة الإنكفاء على الذات ، والتمسك بأهداب الماضى بحثاً عن صيغة لمستقبل هذه الأمة تنسج من تراثها وحده ، بما يترتب على ذلك من إعادة

قولبة المجتمع العربى داخل أطر محدودة . وفى غيبة المشروع القومى العربى ، ونتيجة ظروف تتصل بالواقع السياسى العربى ، أصبحت الأفكار السائدة فى هذا الزمن الردىء تذكرنا بأفكار ما قبل القرن التاسع عشر .

لذلك – عزيزى القارىء – أصبحنا فى حاجة إلى حركة تنوير جديدة توجه إلى الجيل الذى سيبنى مستقبل هذه الأمة ، جيل القرن الواحد والعشرين ، ولذلك – أيضاً – كان اتجاهنا إلى إصدار هذه السلسلة مساهمة منا فى حركة التنوير الجديدة .

وهكذا – عزيزى القارىء – عقدنا العزم على أن نقدم لك أعمال رواد الفكر السياسى العربى الذين تصدوا للأخذ بيد هذه الأمة ، وتقديم تصور لمعالم الطريق إلى مستقبل أفضل ، وهى الأفكار التى تربى عليها جيل من رواد العمل الوطنى فى القرن العشرين . ولا يعنى ذلك أننا نرى « أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ، ولكننا نتيح لأبناء هذا الجيل اجتهادات جيل الرواد الذين كانوا يستشرفون آفاق المستقبل ، والذين حسموا قضايا لازالت تطرح اليوم بأسلوب لا يرقى إلى مستوى أطروحات أولئك الرواد . كما أن هدفنا أن نتيح الفرصة أمام الجيل الجديد ليكمل رسالة هؤلاء الرواد بفكر نهضوى جديد .

وهكذا يتسع « كتاب سينا السياسى » ليضم إلى سلسلته الإسهامات الجديدة فى الفكر السياسى العربى ، وتبنى كل فكر يعبر تعبيراً علمياً عن أزمة الأمة العربية ويحدد رؤية واضحة للخروج منها إلى آفاق مستقبل أفضل .

من أجل ذلك كله – عزيزى القارىء – نقدم لك هذه السلسلة التى ننشرها فى ثوب جديد ، محققة بأقلام كبار المتخصصين ، مشفوعة بدراسات نقدية تضع كل كتاب منها فى مكانه الصحيح من تطور الفكر السياسى العربى الحديث

وأملنا أن نساهم بهذا الجهد المتواضع فى تكوين جيل القرن الواحد والعشرين .

رؤية الإمام محمد عبده للإسلام

يحتل الشيخ محمد عبده فى تاريخنا الفكرى العربى المعاصر مكانة كبيرة . لقد وضع بصماته البارزة والواضحة على العديد من المجالات والميادين الفكرية والاجتماعية والسياسية ، بحيث يكون من الصعب ، بل من المستحيل تماماً ، أن نتجاهل الدور العظيم والرائد الذى قام به ، سواء فى مصر ، أو فى بقية بلدان العالم العربى ، بل إنه كان معروفاً عن طريق آرائه الإصلاحية وكتاباته الجريئة لدى كثير من المفكرين الغربيين .

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ م وتوفى فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٥ م . وكان طوال حياته شعلة نشاط . ومن يطلع على العديد من الكتب والرسائل والمقالات التى تركها لنا الإمام محمد عبده يدرك تمام الإدراك أننا فى عالمنا العربى فى أمس الحاجة وحتى فى أيامنا الحالية إلى الاستفادة من آرائه ومن الفتاوى التى أصدرها ومن تمسكه بتأويل النص الدينى حتى يتفق وروح العصر ، أى متطلبات الأيام التى نعيشها .

لقد جمع محمد عبده بين الجانب النظرى ، والأبعاد العملية الإصلاحية والاجتماعية . صحيح أن جمال الدين الأفغانى كان له دوره السياسى الذى يفوق

بكثير دور الشيخ محمد عبده وكانت الطبيعة الثورية لدى جمال الدين الأفغانى واضحة وبارزة وفاقت بكثير ما نجده عند محمد عبده ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية مفكرنا محمد عبده ومن دوره الرائد فى مجال تجديد الفكر العربى الإسلامى وذلك سواء اتفقنا معه أم اختلفنا حول رأى ، أو أكثر من الآراء التى قال بها .

كانت حياة الشيخ محمد عبده غاية فى الثراء الفكرى والنشاط الثقافى والاجتماعى . نجد هذا كله واضحاً غاية فى الوضوح طوال السنوات التى عاشها سواء فى مصر ، أو فى فرنسا حين عمل مع أستاذه جمال الدين الأفغانى على تأسيس الصحيفة الأسبوعية المعروفة باسم العروة الوثقى والتى كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين ، بالإضافة إلى محاربة التسلط والظلم والطغيان والدعوة إلى التخلص من الاحتلال الانجليزى . وكانت هذه الصحيفة ، أول صحيفة عربية تظهر فى أوربا . لقد كان شيخنا يعمل دون كلل أو ملل وكانت له رؤيته النقدية وآراؤه الإصلاحية الجريئة .

وإذا كان من الصعب أن نطلق على محمد عبده لفظة « الفيلسوف » بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ، إلا أنه ترك لنا العديد من الآراء التى تجعله مجدداً من الطراز الأول ومفكراً لا تخلو كتاباته من الروح الفلسفية . وليرجع القارىء إلى موضوعات كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وإلى دراساته لمشكلات فلسفية وفكرية لا حصر لها كمشكلة الحرية ومشكلة الشر والخير ، وإلى آرائه فى مجال الإصلاح الأخلاق وتفسير القرآن وإصلاح الأزهر وسيجد ذلك واضحاً غاية الوضوح .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الإمام محمد عبده قد ترك لنا مدرسة فكرية ليس فى مصر وحدها ، بل فى العديد من البلدان العربية الإسلامية . وكم نجد آراءه تتردد بلا انقطاع وحتى أيامنا الحالية عند كثير من مفكرينا شرقاً وغرباً وبصورة مباشرة أو غير مباشرة . وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على بصماته القوية على خريطة فكرنا العربى الإسلامى المعاصر . ومن يحاول إهمال أو تغافل

دوره الخلاق المبدع فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً .

وآراء الشيخ محمد عبده سواء فى كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية »[1] أو فى كتبه ورسائله الأخرى ومقالاته أيضاً ، تدلنا بوضوح على أن مفكرنا كان صاحب نظرة تجديدية . ولنحاول الإشارة إلى هذا الجانب إشارة موجزة حتى يستطيع القارىء إدراك الأبعاد الحقيقية لمذهبه الإصلاحى ورؤيته الفكرية خلال بحثه على سبيل المثال فى موضوع « الدين والمتدينون » ، و « الإسلام فى أوائل القرن العشرين » وغيرهما من موضوعات نجدها فى كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » .

إن النظرة التجديدية لا تقوم على رفض التراث جملة وتفصيلاً ، ولا تقوم أيضاً على الوقوف عند التراث كما هو ودون بذل أية محاولة لتأويله وتطويره ، بل إن النظرة التجديدية تعد معبرة عن الثورة من داخل التراث نفسه ، إنها إعادة بناء التراث وبحيث يكون متفقاً مع العصر الذي نعيش فيه . فالتجديد إذن هو إعادة بناء Reconstruction ، ولا يعد التجديد تمسكاً بالبناء القديم كما هو وبصورته التقليدية ، كما لا يحمل فى طياته هدماً أو رفضاً مطلقاً للتراث .

إننا نجد الدعوة إلى إعادة البناء واضحة تمام الوضوح عند كثير من المفكرين من أبناء أمتنا العربية ومن بينهم مفكرنا الشيخ محمد عبده . وهذا يدلنا على أن الإمام محمد عبده إنما كان يدرك تمام الإدراك أن العيب ليس فى التراث ، ولكن العيب فى النظرة إلى التراث من خلال منظور تقليدى رجعى لا يتمشى مع العصر . صحيح أن محمد عبده كان يلجأ أحياناً – وكما سيتضح لنا – إلى الدفاع عن بعض جوانب من التراث بأدلة خطابية بلاغية بعيدة كل البعد عن الأدلة العلمية المنطقية . وصحيح أيضاً أنه كان يلجأ إلى نوع من التعسف فى الفهم ، التعسف الذى لا يخلو من مبالغة تارة وسطحية وسذاجة تارة أخرى ، ولكن ذلك كله يجب ألا ينسنا أن الهدف الذى كان يسعى إليه محمد عبده إنما

---

(١) تم طبع هذا الكتاب بدار الهلال ، مع عرض وتحقيق وتعليق طاهر الطناحى فى ست صفحات .

كان هدفاً سامياً ونبيلاً ، بالإضافة إلى أن محاولات التجديد من داخل التراث أى النظرة التجديدية والتى يعد داخلاً فى إطارها مفكرنا محمد عبده ، قد تفرض على المفكر أحياناً نوعاً من التعسف لابد أن يلجأ إليه . إنه يجدد ولكن من داخل البناء ، البناء التراثى ، ولا يقف من التراث موقف المتقبل المستسلم ، ولا موقف الرافض . ولا يخفى علينا أن المعبرين عن موقف القبول والتسليم ، لا يحتاجون إلى اللجوء إلى أى نوع من أنواع التعسف أو سوء التأويل ، لأنهم يسلمون بالتراث كما هو ويقفون عند ظاهره . ونجد هذا أيضاً عند أصحاب موقف الرافضين للتراث . إنهم إذا رفضوا التراث فهم إذن ليسوا فى حاجة إلى اللجوء إلى أى نوع من أنواع التعسف .

يجب إذن أن نضع هذا فى اعتبارنا حتى نستطيع إدراك الجهد الكبير الذى قام به الشيخ محمد عبده . ويكفى الشيخ محمد عبده فخراً أنه كان من خلال كتبه ورسائله مدافعاً عن العقل إلى حد كبير ، العقل الذى يعد أشرف ما فى الإنسان ، والذى عن طريقه استطاع مفكرنا تأويل النصوص الدينية ، تأويلاً معبراً عن الاجتهاد وسعة الاطلاع والرغبة فى اكتشاف الحقيقة .

نجد هذا واضحاً غاية الوضوح فى العديد من الكتب والرسائل التى تركها لنا محمد عبده ، ومن بينها مقالاته فى العروة الوثقى ، وحاشيته على شرح الدوانى لكتاب العقائد العضدية للإيجى ، ورسالة التوحيد ، وتقرير فى إصلاح المحاكم الشرعية ، والإسلام والرد على منتقديه ، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر ، وتفسيره لسورة العصر ، وسورة الفاتحة ، وتفسير جزء عم ، وتفسير المنار الذى أكمله رشيد رضا ، ودروس دار الإفتاء .

لهذا كله لم يكن غريباً أن يهتم العديد من المفكرين والمؤلفين سواء كانوا من العرب ، أو كانوا من الأوربيين ، بالكتابة عن مفكرنا الكبير محمد عبده ، ودراسة أفكاره . ومن بين من اهتموا بالكتابة عنه ، ودراسة أفكاره ، محمد رشيد رضا ، ومصطفى عبد الرازق ، وعثمان أمين ، وأحمد لطفى السيد ،

وعباس العقاد ، ومحمد بخيت ، ومنصور فهمى ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد أمين ، ومحمد مصطفى المراغى ، وماكس هورتن ، وشارل آدمز ، وشاخت ، وجب ، وجولد زيهر ، وجومييه .

لقد خاض محمد عبده الكثير من المعارك الفكرية وكان له من الأعداء مثل ما له من الأصدقاء وكان هذا شيئاً متوقعاً إذ أننا فى كل عصر وكل مكان إذا كنا نجد دعاة للنور ، فإننا نجد أيضاً خفافيش الفكر الذين يؤثرون الظلام ولا تقوى أبصارهم على مواجهة النور والضياء . وإذا كنا نجد دعاة للإصلاح والتجديد والتقدم إلى الأمام ، فإننا نجد أيضاً دعاة الجمود والانغلاق والرجعية والصعود إلى الهاوية . وإذا كنا نجد أناساً من المفكرين فى هذا العصر أو ذاك من العصور يطلبون منا التمسك بالعقل وجعله المرشد والدليل فى حياتنا ، والاعتصام بالعلم ، فإننا نجد بجوارهم أهل الخرافة والأسطورة والشعوذة واللاعقلانية .

والكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه ، كتاب الإسلام دين العلم والمدنية إنما يكشف عن سعة إطلاع الأستاذ الإمام وعمق ثقافته الدينية الإسلامية ، واهتمامه اهتماماً كبيراً بالدفاع عن الإسلام . وسيجد القارىء لهذا الكتاب كيف يقوم محمد عبده وهو رجل دين أساساً بتوظيف الأفكار الدينية ، وبحيث لا تكون أفكاراً مجردة معزولة عن مجتمعنا . ولعمرى أننا الآن وأكثر من أى وقت مضى ، فى أمس الحاجة إلى العديد من الأفكار التى نجدها فى هذا الكتاب وغيره من كتب ورسائل تركها لنا الشيخ محمد عبده رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على تأليفها . ولعل هذا إن دلنا على شىء ، فإنما يدلنا على أن الفهم المتفتح للدين وأحكامه هو الذى يقدر له البقاء ، أما الفهم الجامد المغلق ، الفهم الذى يقوم على تحنيط الأفكار الدينية – إن صح هذا التعبير – فإنه لا يقدر له البقاء بل سيكون فى وادٍ ، وتكون حياتنا الفكرية والاجتماعية فى وادٍ آخر . ومعنى هذا أن الفهم المتفتح يكون فى صالح الدين وليس ضداً له ، فى حين أن الفهم المغلق الجامد يحمل فى طياته الإساءة إلى الدين وإبعاده

عن حياتنا . ولكن ماذا نفعل حيال قوم يفضلون ظلام العدم على نور الوجود . بل إن من مصائب الزمان وكوارث الدهر أنهم لا يرتضون الظلام لأنفسهم فقط ، بل يقومون بالدعوة إلى إشاعة الفكر المظلم ، الفكر التقليدى الأسطورى ، وذلك حتى تصبح حياتنا ظلاماً فى ظلام .

هذه كلها جوانب ينبغى الإشارة إليها ، وتعد ضرورية لسبر أغوار العديد من الأفكار التى نجدها فى كتاب الإسلام دين العلم والمدنية ، بل فى بقية كتابات الأستاذ الإمام ، حيث نجد منهجه الإصلاحى سارياً فى أكثر كتبه ورسائله .

ويبحث كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية » فى مجموعة من الموضوعات الهامة وذلك على النحو التالى :

١ – الدين والمتدينون .
٢ – المسألة الإسلامية بين هانوتو والإمام .
٣ – أصول الإسلام .
٤ – اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية .
٥ – الإسلام فى أوائل القرن العشرين .
٦ – الإسلام ومدنية أوربا .

ونود أن نشير إلى أن الموضوعات التى تضمنها هذا الكتاب قد ظهرت أولاً كمجموعة مقالات بالمجلات وخاصة مجلة المنار وكان ذلك فى عام ١٩٠١ وقد طُبع أكثرها عدة مرات فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » كما أثارت المقالات المتعلقة بالرد على هانوتو اهتماماً كبيراً من جانب المهتمين بفكر الشيخ محمد عبده سواء كانوا من العرب أو كانوا من الغربيين المستشرقين . وقد أشار إليها وكتب عنها أكثر من باحث ودارس من بينهم تشارلز آدمز Charles Adams وذلك فى كتابه الإسلام والتجديد فى مصر Islam and modernisn in Egypt ، وذلك حين أشار إلى ردود محمد عبده ، وكيف أدت هذه الردود

إلى شهرته فى العالم الإسلامى . قلنا إن كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية » قد تضمن البحث فى العديد من الموضوعات الحيوية الهامة وأثار حولها العديد من التساؤلات والقضايا والأفكار والتى نجد أنفسنا حتى اليوم فى حاجة إلى التعرف عليها والاستفادة منها ولنقف الآن عند كل موضوع من الموضوعات التى بحث فيها الأستاذ الإمام ، وذلك حتى نتعرف على أبرز أفكاره فى كل مجال تصدى للبحث فيه .

يبحث محمد عبده فى موضوع « الدين والمتدينون » ويبين لنا أن الله خلق الإنسان عالماً صناعياً . وهو يعنى بذلك أثر البيئة على الإنسان ، وأيضاً التركيز على أهمية الإرادة الإنسانية وكيف أن الإنسان صنيعة أعماله . إنه يقول إن الإنسان لو ترك العمل ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة ، لما مكنته من ذلك ، بل دفعته إلى هاوية العدم .

بل إننا إذا انتقلنا من الأفعال المادية ، إلى الأحوال النفسية من الإدراك والتعقل والملكات والانفعالات الروحية ، فإننا نجد أيضاً أثر البيئة عليه . إن شجاعته وجبنه وجزعه وصبره وكرمه وبخله وشهامته ونذالته وقسوته ولينه وعفته وشرهه ، كل ذلك يعد نابعاً من تربيته الأولى وأثر المحيطين به كالآباء والأمهات . ومعنى هذا أنه يعد ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعاً ، إنه فى عقله وصفات روحه يعد عالماً صناعياً .

والنتيجة التى يمكن استخلاصها من هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده ، أنه لابد من التأكيد على أهمية الفعل الإنسانى . إن الإنسان يعد حراً ولا يعد مجبراً . إنه لا يصح للإنسان أن يذهب إلى القول بأن الطبيعة هى التى أجبرته ، بل إن الإنسان لديه القدرة والفاعلية .

ونحن فى عالمنا العربى فى أمس الحاجة إلى التأكيد على أهمية هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده والذى يقترب إلى حد كبير من رأى المعتزلة فى موضوع حرية الإرادة ، والبحث فى مشكلة القضاء والقدر . لقد شاع بيننا الاتجاه

الجبرى ، اتجاه التواكل والاستسلام ونسبة كل شيء إلى قوى تفوق الطبيعة . ولا يخفى علينا دور بعض الأنظمة السياسية التى تقوم على تدعيم الاستبداد والدكتاتورية ، فى نشر هذا الاتجاه الجبرى ، وأيضاً دور بعض رجال الدين فى التركيز على الدعوة إلى التواكل والنظر إلى الإنسان وكأنه لا حول له ولا قوة .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان عالماً صناعياً ، فيما يذهب محمد عبده ، فإن الدين – فيما يقول محمد عبده – يعد وضعاً إلهياً . إنه سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها .

ويلاحظ أن الشيخ محمد عبده لا يبين لنا الصلة بين النظر إلى الإنسان كعالم صناعى ، ونظرته إلى الدين كوضع إلهى . إنه ينتقل فجأة من موضوع إلى موضوع مما جعل حديثه لا يخلو من اضطراب وتفكك وقفزات فجائية من مجال إلى مجال آخر .

بل إن محمد عبده سرعان ما يترك حديثه عن الإنسان ، وعن الدين كوضع إلهى ، ويأخذ فى الحديث عن أساس الديانة المسيحية ، وأساس الديانة الإسلامية . وهو يقصد من ذلك ، إبراز الفروق بين الأساس الذى يقوم عليه كل دين ، وما نجده من أفعال ونتائج تعد بعيدة عن الأساس الذى يستند إليه كل دين . إنه يذهب إلى القول بأن الديانة المسيحية قد بنيت على المسالمة فى كل شيء ، والابتعاد عن السلطة ونبذ الدنيا . ومن وصايا الإنجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . أما الآن فنجد – فيما يقول محمد عبده – عكس ذلك فالدول الأوربية المسيحية تسارع إلى افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار واختراع فنون الحرب . والآلات الحربية القاتلة .

وما يقال عن الفرق بين أساس الديانة المسيحية من جهة ، وأحوال الدول الأوربية المسيحية من جهة أخرى ، أى الفرق بين الأساس النظرى من جهة ، والتطبيقات العملية الموجودة الآن من جهة أخرى ، يقال أيضاً عن الفرق بين أساس الديانة الإسلامية ، وبين ما وصلت إليه أحوال المسلمين فى العصور الحديثة .

إن محمد عبده يبين لنا أن الديانة الإسلامية قد وضع أساسها على طلب الغلبة والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . إنه يلاحظ أن من ينظر فى أصل هذه الديانة ومن يقرأ سورة من القرآن ، لابد أن يدرك أن المسلمين يجب أن يكونوا أول من يسعى إلى اختراع الآلات الحربية واتقان العلوم العسكرية وما يرتبط بها من اتقان الطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة . وهو يذكر قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

إن المسلمين الآن قد فقدوا الاهتمام بالبراعة فى فنون القتال واختراع الآلات وسبقتهم الأمم الأخرى ، حتى وصل الأمر إلى أن أبناء الديانة التى تسعى إلى المسالمة قد اخترعوا آلات الحرب الدقيقة ، فى حين أننا لا نجد ذلك عند أبناء الديانة التى تدعو إلى طلب القوة والاستعداد للحرب .

لقد أثار محمد عبده الكثير من الأسئلة والتى يحاول عن طريقها معرفة أسباب ذلك ، أسباب تخلف المسلمين الآن ، فى حين أننا فى الماضى كنا نتمتع بالقوة والمجد والازدهار . ولا تخلو عبارات محمد عبده فى الصفحات الأخيرة من هذا الفصل الذى جعل عنوانه « الدين والمتدينون » وهو أول فصول كتابه كما ذكرنا ، نقول لا تخلو عباراته من نغمة حزن وأسف على ما وصلنا إليه الآن . إنه يتساءل قائلاً : هل استبدت الأبدان وسيطرت على الأرواح ؟ هل انقطعت الصلة بين الأسباب ومسبباتها ؟ لقد كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية ، كان لهم العديد من الأعمال التى بهرت الأبصار وأدهشت الألباب .

ويحاول محمد عبده تحديد الأسباب التى أدت إلى ضعف المسلمين . لقد ظهر بين المسلمين رجال ارتدوا الزى الدينى ولكنهم قالوا بالكثير من البدع التى لا صلة لها بالدين . لقد انتشر بين المسلمين الإيمان بالجبر وأدى هذا إلى سخريتهم من العمل والكفاح . لقد أحدثت آراء الزنادقة فى القرنين الثالث والرابع ، وأيضاً آراء السوفسطائيين بالإضافة إلى وضع الكثير من الأحاديث

المكذوبة ، لقد أحدث ذلك كله - فيما يرى محمد عبده - العديد من النتائج السيئة والتى أحدثت أضراراً بالغة بالمسلمين .

ونلاحظ من جانبنا أن الشيخ محمد عبده قد استطاع التوصل إلى بعض أسباب قصور عالمنا الإسلامى ، ومن بينها مسلك بعض رجال الدين الذين قالوا بالكثير من البدع التى لا تدخل فى إطار الدين من قريب أو من بعيد . وقد كان منتظراً من الشيخ محمد عبده وهو رجل دين أساساً أن يعرف بدقة ما يدخل فى إطار الدين وما لا يدخل فى إطار الدين . إن حديثه يعنى أن المشكلة ليست فى الدين ، ولكن المشكلة فى مسلك بعض رجال الدين . إن الدين يدعونا إلى القوة والعمل والكفاح فى حين أننا نجد أن أقوال بعض رجال الدين - فيما يذهب محمد عبده - تتنافى تماماً مع الدعوة الأصيلة والجوهرية للدين ، وخاصة حين يقومون بنشر الإيمان بالجبر والذى يؤدى بدوره إلى التواكل والاستسلام وعدم الاهتمام بالسعى لطلب الرزق والصراع والكفاح فى الحياة .

إن هذه الملحوظة من جانب محمد عبده وهو يتحدث عن أسباب ضعف المسلمين ، لا تعد جديدة ، بل أشار إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة كثير من المفكرين والفلاسفة قبله . لقد وصف الكندى الفيلسوف بعض رجال الدين وهم قلة قليلة فى عصره ، بأنهم عدماء الدين وليسوا رجال الدين وذلك حين يحاولون التجارة بالدين . لقد ذهب الكندى إلى القول بأن من تاجر بشيء باعه ، ومن باع شيئاً لم يصبح ملكاً له ، فهم إذن عدماء الدين وليسوا رجال الدين .

كما نجد هذا أيضاً عند أبى حامد الغزالى وذلك حين أسف على سلوك بعض رجال الدين فى عصره وحاول المقارنة بين سلوك الفقهاء فى الماضى ، وسلوك بعض رجال الدين الذين عاشوا بعد ذلك . لقد ذهب الغزالى إلى القول بأن رجال الدين كانوا مطلوبين ، أى يسعى الناس إليهم ، ولكنهم الآن أصبحوا طالبين ، أى يجرون وراء الحاكم والخليفة للحصول على رضاه عنهم .

وبالإضافة إلى الكندى والغزالى ، نجد ابن رشد ، يلاحظ أن الدين إذا كان ينادى بالالتزام بالفضيلة العملية ، إلا أننا نجد بعض رجال الدين لا يقومون بالالتزام بالفضيلة العملية ، بحيث لا يكون سلوكهم مطابقاً لحديثهم عن تعاليم الدين وأصوله .

إن هؤلاء القدامى ، أى الكندى والغزالى وابن رشد ، قد لاحظوا الفروق الجذرية بين الدعوة النظرية من جهة ، والسلوك أو التطبيق من جهة أخرى ، وأقوالهم ليس فيها أى تحامل على سلوك بعض رجال الدين ، وخاصة أن الكندى ليس بعيداً عن الإطار الدينى ، من جهة أنه فيلسوف من فلاسفة الإسلام ، والغزالى يعد أساساً من رجال الدين أى الفقه ، وابن رشد قد ترك لنا بعض الكتب الفقهية وعلى رأسها كتابه المشهور : « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه .

ما لاحظه الشيخ محمد عبده لا يعد جديداً ، ولكن لابد من القول بأنه وراء انسياقه إلى اللغة الخطابية الإنشائية أحياناً قد وقع فى بعض الأخطاء ومن بينها :

١ – لماذا يأخذ على أوربا قوتها ؟! هل ينتظر منها أن تتجه إلى الضعف ؟ أليس من الأفضل أن نأخذ عن أوربا الجوانب التى أدت إلى قوتها ؟ إن التغنى بالماضى لمجرد أنه ماض ، والإسراف فى الإشادة به ، سيكون من قبيل البكاء على الأطلال . إن محمد عبده إذا كانت أقواله التى أشرنا إليها إنما تعد تعبيراً أو شرحاً لقول الإمام مالك : لا يصلح آخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أولها ، إلا أنه كان من واجبه أن يحدد لنا ما نأخذه من الماضى (التراث) وما نأخذه من الحاضر (الحضارة الأوربية بوجه عام) . أليس هذا أفضل من اللجوء إلى العديد من التعميمات والأحكام المتسرعة . إننى إذا رأيت رجلاً قوياً وكنت أنا ضعيفاً ، فهل أطالبه أن يكون ضعيفاً مثلى ، أم أن المناسب والضرورى أن أتجه إلى أن أكون قوياً مثله ؟

٢ – يُلاحظ أن محمد عبده لم يركز على سبب هام من أسباب تأخرنا ،

وهو الانغلاق الفكرى والذى يؤدى إلى تأخرنا عن ركب الحضارة والتقدم والنظر إلى المستقبل . إن محمد عبده رغم أنه يدخل فى إطار المجددين الذين نجد فى فكرهم الجانب التراثى والجانب العلمى الحضارى ، إلا أننا نلاحظ وهو يحدد لنا أسباب تأخرنا ، أن الكم التراثى القديم الذى يُشكل فكره ووجهة نظره ، يعد أكثر بكثير من الكم العلمى والفكرى المعاصر . هذه ملحوظة يدركها الدارس لأفكاره إذا قرأها بإمعان وتحليل وحاول سبر أغوار كل فكرة يقول بها وبحيث تكون له رؤيته النقدية ، لا الرؤية التى يكون متأثراً منها بأحكام الشهرة ، رغم أن الشهرة عمياء .

٣ - لم يضع محمد عبده فى اعتباره وهو يتحدث عن تقدم علوم كثيرة عند العرب أن هذه العلوم نفسها قد أخذ العرب أكثرها من حضارات أخرى غير عربية . هل نستطيع أن نتحدث عن علوم كالطب والفلك وغيرهما من علوم عند العرب إلا ابتداء من العصر العباسى ؟ لماذا ؟ السبب هو حركة الترجمة التى ازدهرت فى العصر العباسى والتى عن طريقها عرف العرب ثمار العقليات الأخرى من علوم وفنون . إن ما نجده عند العرب سواء قبل الإسلام وحتى نهاية العصر الأموى لا يزيد على خبرات فى مجالات كالطب والصيدلة والفلك ... إلى آخر تلك المجالات . أما أن نتحدث عن هذه المجالات كعلوم ذات أساس منهجى منظم ، فإننا لا نجدها إلا فى العصر العباسى . ورغم ذلك نجد محمد عبده يركز على الأولين وما أحدثوه من إنجازات . بل إنه يحشر اسم السوفسطائيين أثناء حديثه عن تأخر المسلمين !!! ودون أن يضع فى اعتباره بصمات فكر السوفسطائيين على فكر وشك عصر النهضة الأوربية ولكن يبدو أن البضاعة الفلسفية عند محمد عبده كانت بضاعة ضحلة ، شأنها شأن البضاعة الفكرية والفلسفية التى كانت عند أستاذه جمال الدين الأفغانى والتى أدت به إلى الوقوع فى العديد من الأخطاء والمغالطات وخاصة فى رده على الدهريين .

هذا عن القسم الأول من أقسام كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية » والذى

كان يدور حول « الدين والمتدينين » . أما القسم الثانى فيدور حول ردود محمد عبده على هانوتو والذى كان وزيراً لخارجية فرنسا .

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند العناصر الرئيسية فى مقال هانوتو ،وحديثه مع الأستاذ بشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام ، وأيضاً سنشير إلى أبرز ما جاء فى ردود مفكرنا الشيخ محمد عبده .

لقد أشار هانوتو إلى الصلة بين فرنسا والإسلام . وهو يركز بصفة خاصة على شمال أفريقيا ، وإن كان يتحدث أيضاً عن بقية البلدان الإسلامية . وإذا كنا نلاحظ عند هانوتو نوعاً من التعصب لأوربا وللجنس الآرى ، إلا أن حديثه عن المسلمين لا يخلو من بعض أوجه الصحة ، وقد أشار إلى ذلك محمد عبده رغم نقده العنيف لهانوتو حين يتعرض للحديث عن أصول الإسلام . إن جميع المسلمين – فيما يلاحظ هانوتو – تجمعهم رابطة واحدة ، بها يُدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التى يبتغونها . إنها كالقطب الذى تنتهى إليه قوة المغناطيسية . إن جذوة الحمية الدينية تشتعل فى أفئدتهم حين يقتربون من الكعبة ، من البيت الحرام ، من بئر زمزم ، التى ينبع منها الماء المقدس ، من الحجر الأسود . إنهم يتهافتون على أداء الصلاة صفوفاً ويتقدمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقوله : بسم الله ، فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد : الله أكبر .

ويذكر هانوتو أنه توجد طوائف إسلامية تقوم مبادئها على نوع من التعصب ، وعلى كفاح غير المؤمنين ، وكراهية المدنية الحاضرة . لقد أسس الشيخ السنوسى – فيما يقول هانوتو – مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ، وقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات .

كما يحاول هانوتو مناقشة العديد من الأمور الأساسية فى كل دين والتى ترتبط

بالقدر والمغفرة والحساب . وبعد مناقشته للعديد من المذاهب الدينية والفلسفية القديمة وإبرازه للفروق الرئيسية بين الإسلام والمسيحية من حيث طبيعة كل ديانة منهما ، نجده يبين لنا وجود رأيين مختلفين حول الإسلام . رأى يركز على بيان الخلافات وأوجه التناقض بين الدينين المسيحى والإسلامى ، ويصدر على المسلمين أحكاماً قاسية هوجاء . ورأى يذهب إلى أن الإسلام دين ومدنية يتصلان مع الدين المسيحى بعروة الإخاء والتصاحب .

ويركز هانوتو فى مقاله ، وأيضاً فى حديثه مع صاحب جريدة الأهرام والذى تم فى يوليو عام ١٩٠٠ ، على ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية ويؤكد باستمرار على أن أوربا لم تتقدم إلا بعد أن تم الفصل بين السلطتين . إن سوء التفاهم الذى حدث بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الإسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية (الدول المستعمرة) إنما سببه الصلة الأكيدة بين السياسة والدين فى العالم الإسلامى . ولكن رغم ذلك نجد — فيما يقول هانوتو — انقلاباً عظيماً فى بلد من البلدان الإسلامية وهو القطر التونسى . وهذا الانقلاب يتمثل فى توطيد دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . يقول هانوتو فى عبارة هامة لا تخلو من مغزى : إنه يوجد الآن بلد من بلاد الإسلام قد ارتخى ، بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . إذن توجد أرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضى الآسيوى . أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، أنبتت فى قضائها وإدارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالاً يقاس عليه ، ألا وهى البلاد التونسية .

وقد أشار هانوتو فى مقال ثان له إلى أن من قاموا بالرد عليه ومن بينهم الشيخ محمد عبده ، قد أخطأوا فى فهمه ولم يتعرفوا على حقيقة وجهة نظره ، بل تسرعوا فى إصدار الأحكام التى تدل على الابتعاد عن الصواب تماماً ، وقد أكد على ذلك فى حديثه مع صاحب جريدة الأهرام . إنه — فيما يقول — لا يتابع الكتاب الذين يذهبون إلى أن تقدم المسلمين يعد مستحيلاً لأن الإسلام

دينهم يعوقهم عن ذلك ، فكلما تقدمتَ أوربا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على النظام الأوربى علماً ومدنية ، فإنها قد نجحت ، بل كل ما يود التنبيه إليه أن أوربا التى تقدمت إنما مرجع تقدمها محاربة السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون وذلك لكى تفصلها عن السلطة المدنية ، كما أن كل أمة لم تتقدم فى ماديتها ، فإنها لابد أن تموت ، إذ لا حياة بدون مادة . وإله الشرقيين هو نفسه إله أوربا وأمريكا . ولم يكن تقدم أوربا وأمريكا ، وتأخر الشرق راجعاً إلى أن الله تعالى يميل إلى أوربا وأمريكا أكثر من ميله إلى الشرق ، بل إن التقدم سببه العمل والاجتهاد ، والتأخر يكون سببه اليأس والتواكل والاستسلام والوقوف عند التغنى بأمجاد الماضى . إن اليابانى لم يقم باحتقار الأجنبى ، لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحى يعد دينه بعيداً عن دين أهل اليابان ، بل إن اليابان لم تتقدم إلا عن طريق اعتقادها بضرورة محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى أن تتشبه بأوربا فى العلم والمدنية والعمل . وإذا كانت النهضة العلمية قد بدأت فى مصر وتم إنشاء العديد من المدارس ، إلا أن العبرة ليست بإقامة المدارس ، بل بوضع المناهج المدرسية ، فالعلم وحده لا يكفى ، ولكن لابد أن يمزج بالتهذيب . وهذا كله إن دلنا على شىء ، فإنما يدلنا على أن السلطة المدنية تعد أهم وأشد من الرابطة الدينية . ولم تتقدم أوربا إلا حينما جعلت السلطة المدنية قاعدتها الأولى .

وعلى الرغم من صدق بعض الملحوظات التى قال بها هانوتو ، والتى يمكننا الاستفادة منها فى التركيز على أهمية العمل والكفاح ، وأننا لن نتقدم إلا بالانفتاح على الحضارة الأوربية ، إلا أننا لابد أن نتنبه إلى أن هانوتو إنما كان مدفوعاً بحكم أسباب سياسية أساساً ، وإلا كيف يمكننا تبرير تمجيده لتونس حينما كانت مستعمرة ، وتذكيره لنا باستمرار إلى أنه من الضرورى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية . بالإضافة إلى شعوره بالتفوق – كما قلنا – لأنه من أبناء الجنس الآرى لا السامى .

ولا نود الوقوف كثيراً عند موضوع التمييز بين العقول والمواهب على أساس الأجناس ، أى جنس آرى هو الذى يستطيع التفكير وإبداع المذاهب الفلسفية ، وجنس سامى لا يستطيع أن يصل إلى ما يصل إليه الأوربى الذى ينتمى إلى الجنس الآرى لا السامى . لقد انتهى إلى حد كبير جداً موضوع التمييز بين العقول على أساس التمييز بين الجنس السامى والجنس الآرى . فالتفكير حظ مشترك للناس جميعاً ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

وكم حاول محمد عبده الرد على آراء هانوتو فى مقاله الذى سبق أن أشرنا إليه والذى نشر فى جريدة « الجورنال » الباريسية وتمت ترجمته فى جريدة المؤيد . ويلاحظ على رد محمد عبده الاهتمام بإيراد العديد من الحقائق التاريخية ، وإن كان يعيب رده ، انسياقه وراء اللغة الخطابية الانشائية وتركيزه على ماضى المسلمين عن طريق ذكر العديد من الأمثلة التى تبين لنا أمجادهم . وكم قلنا من جانبنا إن الوقوف عند حد التغنى بالماضى لمجرد أنه ماض ، والتغنى بالتراث لمجرد أنه تراث ، لن يفيدنا بشىء فى حياتنا التى نحياها .

ويبين لنا محمد عبده خلال رده على هانوتو أن الغرب الآرى قد أخذ عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل . ولم يقدم لنا محمد عبده أدلة تاريخية على ما يقول به ، بل إن محمد عبده كان من واجبه أن يجيب على سؤال هو : وهل منع الغرب دول الشرق من الاستفادة من علومه وآدابه ؟!

أما حديث محمد عبده عن بعض المذاهب الفلسفية اليونانية كمذهب أهل البخت والاتفاق ، والخلط بين هذا المذهب والقول بالجبر ... إلى آخر هذه الآراء ، فإنه يعد مليئاً بالأخطاء . ألم أقل لك أيها القارىء العزيز ، إن البضاعة الفكرية فى بعض ميادينها ومجالاتها تعد ضحلة عند مفكرنا محمد عبده .

ونجد فى ردود محمد عبده الكثير من الجوانب الإيجابية والصادقة تماماً ومن بينها أهمية الدعوة إلى الحرية والابتعاد عن القول بالجبر ، وأيضاً تفرقته بين الدين فى أساسه وأصوله وأحكامه ، وبين ما نجده شائعاً عند بعض رجال الدين

والذين لم يفهموا الإسلام فهماً صادقاً ودقيقاً . إن الإسلام لم يكن دعوة إلى الضعف والتواكل ، بل دعوة إلى القوة . وقد ذكر محمد عبده فى هذا المجال وكتدليل على دعوة الإسلام إلى الاعتماد على القوة ، ما قاله أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة . لقد قال له : حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح . كما أن الله تعالى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . أما الآن فقد انقلب وضع الدين فى عقل المسلم ، وحق فيه قول على كرم الله وجهه : « إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً » . لقد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه ، وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها ، بل ما يهدم قواعدها ويأتى على أساسها . ويعرض علينا محمد عبده الكثير من الأمثلة التى تبين لنا كيف فهم أكثرنا ، القواعد الدينية فهماً خاطئاً .

كما يحدثنا محمد عبده خلال رده على هانوتو الذى طالب بالفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، عن معنى الجمع بين السلطتين فى الإسلام . ويقول إن فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ... فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين . هذا ما يقول به محمد عبده . وهو أمر يدعو إلى العجب ونحن فى القرن العشرين .

والواقع أن محمد عبده فى ردوده على هانوتو كان متسلحاً بالشجاعة والصبر والمناقشة المستفيضة لكل حجة من حجج هانوتو ، وذلك على النحو الذى سيجده القارىء فى كتابه . ولا يقلل من أهمية ردوده الا اسرافه فى التغنى بالماضى ، وتركيزه على الأمثلة التى تؤيد وجهة نظره ، ودون أن يهتم بإيراد العديد من الأدلة التى تخالف وجهة نظره .

أما القسم الثالث من أقسام الكتاب ، فإن موضوعه ، أصول الإسلام . وقد حلل مفكرنا محمد عبده هذه الأصول ، وكان يغلب عليه فى دراسته لهذه الأصول الموقف الدفاعى ، بمعنى الدفاع عنها ضد من يسيئون فهمها . ولهذا

نجد علاقة بين حديثه عن هذه الأصول ، وبين ردوده على هانوتو والتى أشرنا إليها فيما سبق .

وهذه الأصول هى :

١ – النظر العقلى لتحصيل الإيمان .
٢ – تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض .
٣ – البعد عن التكفير .
٤ – الاعتبار بسنن الله فى الخلق .
٥ – قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها .
٦ – حماية الدعوة لمنع الفتنة .
٧ – مودة المخالفين فى العقيدة .
٨ – الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند أكثر هذه الأصول ، إذ سيتضح لنا سعة أفق الشيخ محمد عبده وعقليته النقدية الدقيقة . والواقع أن الإنسان حينما يقرأ آراء محمد عبده أثناء حديثه عن هذه الأصول يدرك تمام الإدراك أننا الآن فى أمس الحاجة إلى مثل تلك الآراء سواء فى حياتنا الفكرية أو حياتنا الاجتماعية السياسية . إن ما نجده عند محمد عبده أفضل بكثير من تلك الآراء التى تتردد اليوم عند كثير من المشايخ فى مصر وبقية بلدان العالم العربى والتى تعد معبرة عن الرجعية والتخلف والقصور الذهنى قلباً وقالباً .

بالإضافة إلى أن المتأمل فى هذه الأصول من خلال تفسير وتأويل محمد عبده لها ، يدرك تماماً أن العيب ليس فى الدين ، ولكن العيب فى فهم بعض المشايخ وغيرهم لهذا الدين . ورحم الله مفكرينا الكبار فى قديم الزمان حين نبهوا إلى أن المشكلة ليست فى الدين ، ولكن المشكلة تكمن أساساً فى العقول الصخرية الجامدة التى تنسب إلى نفسها الوصاية على الدين وكأن الدين قد جاء لهم فقط ، وكأن الدين لا يصح أن يقترب من فهمه وتفسيره إلا أمثال هؤلاء .

وكانت النتيجة الحتمية لتفسيراتهم الجامدة المغلقة والمنغلقة على نفسها ، أن باعد كثير من الناس بينهم وبين الدين ، لأنهم ظنوا أن الدين ، إنما هو الدين من خلال القوالب الجامدة التى قال بها أناس أطلق بعضهم على أنفسهم أنهم رجال دين ، والدين منهم براء . ماذا نقول ؟ ، بل إن الإسلام نفسه لا نجد فيه ما يسمى برجل الدين ، إذ أن هذه التسمية قد تؤدى إلى تقسيم الناس إلى رجال دين ورجال يدخلون فى دائرة اللادين .

لقد ذهب محمد عبده فى دراسته لأصول الإسلام إلى أن الإسلام قد أطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد . فهل يفهم ذلك من نصبوا أنفسهم لإصدار الأحكام الجائرة الظالمة والتى تذكرنا بأحكام محاكم التفتيش . ومن المؤسف له أننا نجد هذه الأحكام الجائرة ، الأحكام الصادرة بالتكفير ، تجىء عن أناس يعيشون فى القرن العشرين منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال على قيد الحياة .

يقول محمد عبده : إننى لو أردت سرد جميع الآيات التى تدعو إلى النظر ف آيات الكون لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه . ومن هذه الآيات قوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » وقوله تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » .

إن الإسلام قد أطلق العنان للعقل ، ولا يقيد العقل بكتاب ولا يقف به عند باب ولا يطالبه فيه بحساب . ويعطينا محمد عبده مثالاً يؤيد به كلامه ، فيما جاء فى خبر من سأل النبى ﷺ : أين كان ربنا قبل السموات والأرض ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام : كان فى عماء تحته هواء . والعماء عندهم السحاب .

ونود أن نشير من جانبنا إلى أن ذكر هذا المثال فى استدلال محمد عبده على

أهمية النظر بالعقل يرتبط بما ذهب إليه فى موضوع حدوث العالم وقدمه . إذ أن محمد عبده لم يذهب إلى تكفير القائلين بقدم العالم كما فعل الغزالى وابن تيمية ، بل إنه قال بخطأ رأيهم ، إذ أنه قال إن الذين بحثوا فى هذه المشكلة ، مشكلة هل العالم يعد حادثاً بمعنى أن الله تعالى خلقه من العدم ، أم أنه يعد قديماً بمعنى وجوده عن مادة أولى أزلية ، قد ذهب فريق منهم إلى القول بحدوثه وهم على صواب فى رأيهم كما يذهب محمد عبده ، وذهب فريق آخر وهم الفلاسفة أساساً ، أو أكثرهم إلى القول بأن الله تعالى أوجده عن مادة أولى قديمة ، وهم على خطأ فى قولهم . ومن الواضح أن رأى محمد عبده فى قول الفلاسفة بالقدم ومن بينهم الفارابى وابن سينا يختلف عن اعتقاد الغزالى بأن الفلاسفة قد كفروا فى قولهم بقدم العالم . وقد ردد الغزالى هذا الرأى من جانبه تجاه الفلاسفة فى العديد من كتبه وخاصة فى كتابه تهافت الفلاسفة .

وإذا كان محمد عبده لم يذهب إلى تكفير الفلاسفة فإن سبب ذلك فى الغالب ، اعتقاده أن هذه المسألة ، مسألة الحدوث والقدم ، تعد مسألة جدلية ، وخاصة أن القائلين بالقدم قد حاولوا الدفاع عن رأيهم بذكر أكثر من آية من الآيات القرآنية ، ومنها قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » وقوله تعالى : « وكان عرشه على الماء »..

ومهما يكن من أمر ، فإننا لا نبحث الآن فى مشكلة حدوث العالم أو قدمه ، وأى الرأيين يعد صحيحاً ، ولكن كل ما نود أن نؤكد عليه ، أننا إذا افترضنا صلة ما يذكره محمد عبده فى خبر من سأل النبى ﷺ ، صلته بموضوع حدوث العالم وقدمه ، وأيضاً تأكيد محمد عبده على أن القرآن لا يقيد العقل ، استطعنا معرفة الأسباب التى من أجلها ابتعد محمد عبده عن تكفير الفلاسفة لقولهم بقدم العالم . وقد بحث محمد عبده هذا الموضوع فى شرحه على كتاب العقائد العضدية . وإذا كان قد قال بوقوعهم فى الخطأ ، فإن هذا القول يعد أفضل بكثير من القول بتكفيرهم .

ومن الواضح أن محمد عبده يتجه إلى حد كبير اتجاهاً اعتزالياً ، أى يشبه موقفه موقف المعتزلة ، وذلك حين بين لنا فى الأصل الأول للإسلام ، كيف أن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، وأن النظر هو وسيلة الإيمان الصحيح . كما ذكر فى دراسته للأصل الثانى بأنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل .

أما الأصل الثالث ، فإنه يعد بدوره من الأصول الهامة ، والذى نحن الآن فى أمس الحاجة إليه وخاصة بعد شيوع أحكام التكفير ، والتى يصدرها أناس يتصفون بسلاطة اللسان ولديهم نوع من التسرع فى إصدار أحكام بالكفر على من يخالف هذا الرأى أو ذاك من الآراء التى يقولون بها ويجزمون بصحتها ولا يقبلون مناقشة لها من جانب من يختلفون معهم فى آرائهم . وأصبحنا نسمع الآن عن جماعات تسمى بجماعات التكفير والهجرة . أصبحنا نسمع عن الربط بين الفكر العلمانى والإلحاد . أصبح بعضنا يهوى إطلاق أحكام التكفير ، والضرب تحت الحزام ، وتوجيه القذائف الكلامية السامة ، ومن بينها السباب والشتائم التى قد لا نجدها فى أى قاموس من قواميس الهجاء والشتائم . نعم إننا فى أمس الحاجة إلى ما ذهب إليه محمد عبده حين قال فى معرض دراسته للأصل الثالث : إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ .

هذا ما يقول به الشيخ محمد عبده ، ولكنه للأسف الشديد لم يقف عند أحداث جسيمة حدثت فى تاريخنا العربى الإسلامى ، وكان ينبغى على محمد عبده ذكرها وتحديد موقفه منها ، وخاصة أنه توجد مجموعة من العوامل الدينية كانت وراءها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر محنة القول بخلق القرآن أيام بعض الخلفاء العباسيين وما حدث لبعض العلماء أثناء تلك المحنة من التهديد بالقتل ، وما حدث أيضاً لأحمد بن حنبل . ومن بينها قتل الحلاج الصوفى المعروف ، وقتل السهروردى الصوفى حتى عُرف بالسهروردى المقتول ، ونفى ابن رشد الفيلسوف

إلى بلدة أليسانة فترة من الزمان ، وتكفير ابن تيمية للصوفى ابن عربى .. إلى آخر تلك الأحداث التى كان ينبغى على محمد عبده الوقوف عندها ، إذ أن هذا كان أفضل له إذا أراد الإلتزام بالموضوعية والنظرة الواقعية ، أفضل له من اللغة الخطابية الإنشائية التى لجأ إليها فى حديثه عن أصل من أصول الإسلام .

ويواصل الشيخ محمد عبده دراسته لأصول الإسلام ، ويبين لنا أن الإسلام قد عمل على هدم السلطة الدينية ولم يجعل لأحد سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه . فالرسول ﷺ كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمناً ومسيطراً يقول تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ليس فى الإسلام إذن ما يسمى بالسلطة الدينية . وقد أكد على ذلك الشيخ محمد عبده وضرب لنا العديد من الأمثلة وبين لنا أن من حق كل مسلم أن يفهم القرآن بعد دراسته لبعض العلوم التى تتصل به كقواعد اللغة العربية والناسخ والمنسوخ ومن الواضح أننا الآن وأكثر من أى وقت مضى فى أمس الحاجة إلى أقوال محمد عبده وذلك لوضع الأمور فى نصابها ، وفهم الدين فهماً صحيحاً . لقد تحول الدين عند مجموعة من الناس إلى نوع من التجارة . وأصبح بعض المشايخ الآن لا يقولون كلمة فى مجال الدين ولا حتى نصيحة من النصائح الدينية ، أو فتوى من الفتاوى ، إلا بدفع الثمن مقدماً ، وكأن الدين قد أصبح من أملاكهم الخاصة لا يجوز لأحد أن يشاركهم فيه وإلا أصبح كافراً وصدر عليه حكم بالمروق والإلحاد . ولعلنا قد سمعنا فى مصر منذ سنوات ليست بعيدة ، كيف يطالب فريق منهم بحق الأداء العلنى عن قراءته لبعض الآيات القرآنية وكيف أن الحديث عن أى مجال دينى لابد من دفع ثمنه على أساس الدقائق التى استغرقها والصفحات التى تمت كتابتها ، تماماً كما نتعامل فى ميدان التجارة وحساب الربح والخسارة !!!

كل هذا يحدث الآن رغم أن الإسلام فى طبيعته ليس فيه – كما ذكرنا – ما يُسمى برجل الدين .

ويبين لنا الشيخ محمد عبده أن الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى وليس من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، إذ ليس فى الإسلام – كما يكرر دائماً – سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وإذا كان يقال : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الإسلام ، فإن محمد عبده يجيب عن ذلك قائلاً : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامى ، ولا يجوز لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره .

ويؤكد محمد عبده على دعوته هذه سواء فى دراسته للأصل الخامس ، أو فى دراسته للأصل السادس ، والذى جعل موضوعه ، حماية الدعوة لمنع الفتنة . إنه يبين لنا أن القتل ليس فى طبيعة الإسلام ، بل من طبيعته العفو والمسامحة . ولم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة ، بل كان يُكتفى بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطان الإسلام ، ثم ترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يدفعون جزية لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم ، أحرار . وقد جاء فى السنة المتواترة ما يفيد ذلك ، ومنها . « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وأيضاً : « من آذى ذمياً فليس منا » . أما إذا كنا نجد انحرافا من جانب بعض المسلمين عن هذه الأحكام ، فإن ذلك قد ظهر – فيما يقول محمد عبده – عندما بدأ الضعف فى الإسلام ، وضيق الصدر من طبع الضعيف . إن الإسلام يقول فى شأن الوالدين المشركين : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىَّ » إن الإسلام إذن لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

إن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن

يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها .

هذه كلها مبادىء يكشف عنها ويقوم بتحليلها مفكرنا الشيخ محمد عبده خلال دراسته لأكثر من أصل من أصول الإسلام . ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أن محمد عبده قد أغفل ، أو تغافل عن كثير من وجهات النظر التى تخالف رأيه والتى تركز على العديد من الحوادث الأليمة والمؤسفة والتى وقعت طوال التاريخ الفكرى والحضارى للإسلام ، وقد أشرنا إلى مجرد نماذج منها . ويبدو لنا محمد عبده خلال دراسته للعديد من الأصول الإسلامية التى أشرنا إليها ، فى صورة المفكر الذى تسلح بأسلحة جدلية كلامية ، وليس بأسلحة فلسفية برهانية . ومن أبرز عيوب السلاح الجدلى الكلامى ، تركيز الأضواء على نوع من الأدلة يؤمن به الفرد حامل تلك الأسلحة ، وجعل الأضواء خافتة شاحبة حول الأدلة التى تناقض رأيه أو تخالفه .

لقد تحدث محمد عبده عن الخليفة ، خليفة المسلمين ، وافترض فى خياله أنه سيكون ملتزماً بالمبادىء التى تحدث عنها محمد عبده ولكن هيهات ذلك . والتاريخ شاهد على ما أقول به ، وخير شاهد . لقد تحدث محمد عبده حديثاً يفيد التقليل من أهمية انجازات الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، وكأنه يفترض منذ البداية أنه لابد من الجمع بينهما ، بل وكأنه يظن أن الدول الأوربية التى قامت بالفصل بين السلطتين قد أصبحت خراباً وفى طريقها إلى الزوال . ألم يكن الأجدر بمفكرنا محمد عبده مناقشة المذهبين معاً ، والمناقشة قد تؤدى إلى ابراز مزايا وعيوب كل مذهب من المذهبين ، أو الرأيين ؟ . إن هذا هو ما يلزمنا به العقل وكما ينبغى أن يكون العقل ، ولكن أكثرهم لا يعلمون .

وتأكيداً على الدفاع عن الإسلام والاعتقاد بأن الدين يجب ألا يكون معزولاً عن المجتمع فيما يرى محمد عبده أثناء دراسته للأصول التى سبق أن أشرنا إليها ، فإننا نجد الشيخ محمد عبده فى دراسته لآخر الأصول ، وهو الأصل الذى يتمثل فى الجمع بين الدنيا والآخرة ، يعطينا العديد من الأمثلة التى

تدلنا على كيفية النظر إلى الآخرة من خلال الدنيا ، والنظر إلى الدنيا بعيون الآخرة ، إن صح هذا التعبير . إن أوامر الدين إذا كانت تطلب من العبد الاتجاه إلى ربه وتملأ قلبه بالرهبة وتعطيه الأمل من الرغبة ، فإنها لا تحرمه من التمتع بالدنيا ، بل تطلب منه الوقوف موقفاً معتدلاً . إن الرسول ﷺ لم يقل : بع ما تملك واتبعنى ، ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال : الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .

ومعنى هذا أنه لا يوجد غلو فى الدين ، بل يوجد الاعتدال والموقف الوسط وقد ذكر محمد عبده العديد من الآيات القرآنية التى تؤيد ذلك ، منها قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » وقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » ، وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

ومن الواضح أن محمد عبده فى تركيزه على أهمية الربط بين الدنيا والآخرة ، ودعوته إلى التمتع بالدنيا ، إنما يدلنا على أنه لا يرتضى لنفسه آراء الصوفية ولا اتجاه الزهاد والعباد حين يهملون الدنيا فى سبيل الآخرة . بل إن محمد عبده يبين لنا فى أواخر دراسته لهذا الأصل ، أصل الجمع بين الدنيا والآخرة ، أن المسلم لا يمكنه أن يشكر الله حق شكره إلا إذا وضع العالم بأسره تحت نظر فكره واستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه . إنه لا شىء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول ، والوصول إلى المعقول . وعلى الفرد أن يسير فى مملكة العلم ليمتع عقله ، كما ينتشر فى الأرض ليكسب رزقه ويطعم أهله .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد بحث فى أصول الإسلام ، وبين لنا من خلال بحثه فى أكثر من أصل من تلك الأصول ، أن الإسلام يدعونا إلى النظر

والتفكر ، فإننا نجده يبحث أيضاً — كتأييد لما يقول به — فى اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية ، وهذا موضوع القسم الرابع من أقسام كتاب : « الاسلام دين العلم والمدنية » ، وسنقف وقفة قصيرة عند هذا القسم .

يبين لنا الشيخ محمد عبده كيف اهتم المسلمون والعرب اهتماماً لا حد له بالعلوم الأدبية وبعد مرور عشرين عاماً على وفاة الرسول ﷺ . كما اهتموا بالعلوم الكونية وخاصة أيام الدولة العباسية عند أمثال المنصور وهارون الرشيد والمأمون . كما اهتم المسلمون بإنشاء دور الكتب سواء فى بلدان المشرق العربى أو فى بلدان المغرب العربى ، بالإضافة إلى إنشاء المدارس للعلوم والتى انتشرت فى كل الأقطار ، فى المغول وفى التتار من جهة المشرق ، وفى مراكش وفاس من جهة المغرب .

كما يشير محمد عبده إلى أهمية العلوم العربية ، وكيف كان علم العرب فى أول الأمر يونانياً ثم أصبح عربياً ، وأن أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة .

ولاشك أن محمد عبده قد دافع عن أهمية العلوم العربية دفاعاً مجيداً وبغير حدود إلا أننا نلاحظ ما يلى :

١ — لجوء الشيخ محمد عبده إلى التعميمات دون أن يضع فى اعتباره العديد من الأمثلة والحوادث التاريخية التى لا تؤيد أقواله ، وهذا هو العيب الأكبر فى اللجوء إلى التعميم وبقصد الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية بحق وبغير حق . لابد أن نضع فى اعتبارنا أن كل حضارة مع ما يوجد فيها من إيجابيات وانجازات ، إلا أننا نجد مع ذلك نوعاً من السلبيات . لقد تكلم محمد عبده فى هذا الفصل عن كافة العلوم عند العرب وذكر أن جميع المقالات والكتب كانت تنتشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شىء مما كتب صاحب الكتاب ، ما عدا إشارة من جانب مؤرخ واحد إلى أنه قد وضع قانون

فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد وبحيث لا ينشر منها شيء إلا بإذن .

والدارس لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية لابد أن يلاحظ وقوع العديد من الأحداث التى تدلنا على قيام بعض الخلفاء وبعض رجال الدين بالتضييق على حرية الفكر حتى فى العصر العباسى والذى يشير إليه محمد عبده كثيراً ، بالإضافة إلى عصور أخرى فى المشرق والمغرب . ألم يسمع محمد عبده عن إحراق كتاب علوم الدين للغزالى فى بلاد الأندلس ، وعن رجم العامة للمشتغلين بالمنطق والفلسفة ومن لديهم كتب فى هذين الموضوعين ، وعن إحراق مئات بل آلاف الكتب بعد صدور الحكم على ابن رشد بالنفى خارج قرطبة إلى غير ذلك من مئات الأحداث التى كان ينبغى على محمد عبده الوقوف عندها ؟ أليس ذلك أفضل له وللقراء من اللجوء إلى التعميمات وإلى الدفاع عن طريق لغة لا تخلو من النزعة الخطابية الإنشائية ؟ هل كان موقف المسلمين من كتب المنطق والفلسفة هو نفس موقفهم من الكتب الدينية والأدبية واللغوية ؟ الجواب بالنفى إذا قمنا بتحليل الأحداث التاريخية تحليلاً نقدياً دقيقاً .

٢ - يلجأ محمد عبده إلى نوع من المبالغة حين يذهب إلى أن العرب قد تميزوا عن غيرهم بالمشاهدات والتجارب . ولا يضع فى اعتباره أن المفكرين قديماً وقبل الميلاد قد اعتمد بعضهم على المشاهدات والتجارب ، بل إن العرب أنفسهم ، كانوا إلى حد كبير عالة على نتائج العديد من المشاهدات والتجارب التى نجدها عند أرسطو وغيره من المفكرين والفلاسفة .

٣ - ينفى محمد عبده عن ابن رشد قوله بأن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذى يبقى هو أرواح الأنواع ، أى أن الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول . ينفى محمد عبده عن ابن رشد ذهابه إلى هذا القول أو المذهب ولا يشير إلى كتاب واحد من كتب ابن رشد . إننى لا أود مناقشة هذا الموضوع مناقشة تفصيلية لأنه يحتاج إلى العديد من الكتب

والدراسات ، ولكن كان ينبغي على الشيخ محمّد عبده تحليل ما يقوله ابن رشد في أواخر شرحه لكتاب الكون والفساد لأرسطو ، وكتاب تهافت التهافت ، والتفسير الكبير لكتاب الميتافيزيقا لأرسطو ، والذى قام به ابن رشد . لو كان محمد عبده قد لجأ إلى هذه الكتب ، فإنه سيجد فكرة النفس الكلية عند ابن رشد . وكان منتظراً من الشيخ محمد عبده عرض آراء الفلاسفة كما قالوا بها ، ثم بعد ذلك يكون من حقه الاتفاق معهم فى الرأى أو مخالفتهم فى هذا الرأى أو ذاك من الآراء التى قالوا بها . وإذا كان الشيخ محمد عبده ينظر إلى آراء الفلاسفة من خلال هذا المنظور الدينى ، فما رأيه فى الغزالى الذى نسب إلى الفلاسفة العديد من الآراء التى قال عنها إنها تدخل فى مجال الكفر ؟ أى الرأيين إذن هو الرأى الصحيح فى نظر محمد عبده ؟ إذا كانت آراء الغزالى تختلف عن آراء الفلاسفة فهل سيقوم محمد عبده - إذا كان قد فكر فى هذا الموضوع أو الإشكال - بالدفاع عن آراء الغزالى أم بالدفاع عن آراء الفلاسفة ؟ وهكذا إلى آخر الإشكالات التى كان محمد عبده سيواجهها حتماً . إذا كان قد اتجه هذا الاتجاه ، الاتجاه إلى تأويل آراء الفلاسفة حتى تتفق مع الدين ، والمثال الذى ذكرناه عن ابن رشد والذى أشار إليه محمد عبده فى هذا الفصل يعد خير دليل على ما نقول به .

٤ - يشير محمد عبده إلى مقتل الحلاج ، ونكبة ابن رشد ، وهو فى مجال اثبات حرية الفكر فى الحضارة العربية الإسلامية . ولا يخلو كلام محمد عبده من تبرير لقتل الحلاج . فهو يقول : إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله ، فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه . إن القارىء لهذا التبرير من جانب الشيخ محمد عبده يجد أنه لا يخلو من تعسف وهروب من المشكلة ، مشكلة حرية الفكر ، وهل كان تقطيع أطراف الحلاج وقتله متفقاً مع حرية الفكر ، أم أنه قد ضرب بحرية

الفكر عرض الحائط وجعلها فى مأتم ؟ واترك الإجابة للقارىء العزيز .

بل إن الشيخ محمد عبده يبين لنا أن الحسد كان الدافع وراء نكبة ابن رشد ، أى حسد الفقهاء وبعض الناس له ، وكان من المنتظر من محمد عبده تحليل أسباب نكبة ابن رشد وسواء كانت من الأسباب السياسية أو الأسباب الدينية ، إذ سيتبين له أن اشتغال ابن رشد بالمنطق والفلسفة كان السبب الرئيسى لنكبة هذا الفيلسوف العملاق .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد حلل – كما قلنا – موضوع اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية ، فإننا نجده يبحث أيضاً فى موضوع « الإسلام فى أوائل القرن العشرين » . ونود أن نقف قليلاً عند الخطوط الرئيسية فى حديث محمد عبده عن هذا الموضوع .

يبين لنا الشيخ محمد عبده أنه لا يصح الاحتجاج بآراء وأفعال بعض المسلمين ، على الإسلام . هذا هو محور هذا الفصل والذى يعد من الفصول الهامة ، إذ يكشف عن صراحة الإمام محمد عبده ، ورغبته فى الإصلاح ، والدليل على ذلك أننا نجده لا يتردد فى نقد سلوك كثير من المشايخ سواء القدامى منهم ، أو الذين عاصروه . والقارىء لهذا الفصل يشعر بصدق الإمام محمد عبده وبعد نظره فى العديد من الآراء التى قال بها كمحاولة من جانبه للدفاع عن الإسلام واستمراريته خلال القرون التالية . إنه يتكلم فى عبارات مليئة بالأسى والحزن عما وصل إليه حال المسلمين اليوم فى بعض الأقطار الإسلامية ، ويذكر العديد من الأحداث والروايات التى تدلنا على جمود بعض المشايخ ومن تابعهم وكيف أن هذا الجمود إذا استمر فإنه لن يكون فى صالح الدين ، بل سيكون من أسباب عدم تآخيه مع روح العصر الحديث .

إننى أدعو القارىء إلى التأمل فى كل الأفكار التى قال بها محمد عبده بين ثنايا هذا الفصل ، وسيجد أن أكثرها يصلح أن يكون منهجاً أو دستوراً يجب أن نسير عليه اليوم ، بل إنها ستؤدى إلى أن يكون حالنا أفضل بكثير جداً من أحوالنا فى الأمس القريب والأمس البعيد أيضاً .

يبين لنا محمد عبده فى هذا الفصل أن سلوك بعض المسلمين والمعادى للعلم والفلسفة ، والفكر بوجه عام ، لا يصح أن يتخذ دليلاً على أن العيب فى الدين ، العيب فى الإسلام . لقد كان ينشر بالجرائد - فيما يقول محمد عبده - العديد من المقالات التى تستهجن إدخال علم الجغرافيا بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ، وكان كتاب تلك المقالات يقومون بالهجوم على من أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم التى تدرس بالأزهر ، ومن الواضح أن محمد عبده يشير إلى نفسه ، لأنه من أنصار تعليم هذه العلوم ، وقد وجدت آراؤه معارضة شديدة من جانب بعض المشايخ ، والذين هم أعداء لكل مخالف لما هم عليه من التقليد والتزمت ، إنه إذا قيل لطلبة الأزهر بأنه ينبغى دراسة بعض مبادىء الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، فإن هؤلاء المشايخ - فيما يقول محمد عبده - يصيحون أجمعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى ألا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة فى زعمهم .

والواقع أننا نجد عند مفكرنا الشيخ محمد عبده فى هذا المجال ، دعوة إلى الانفتاح على العلوم الأخرى ، حتى لو كانت من العلوم غير الدينية ، أى غير المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعلوم الدينية الشرعية . وهذه الدعوة من جانب محمد عبده تعد دعوة ممتازة رائعة ، إذ نلاحظ أن بعض الشيوخ ومن جاراهم وحتى يومنا هذا للأسف الشديد ونحن فى أواخر القرن العشرين ، يقومون بالهجوم على العلم وعلى الحضارة القائمة على العلم ، إنهم يتناقضون - فيما أرى - تناقضاً شديداً ، إنهم يهاجمون الحضارة وفى نفس الوقت يكونون من أكثر المستفيدين من الحضارة وذلك حين يستخدمون الميكرفون مثلاً وهو ثمرة من ثمرات العلم الحديث ، حين يستخدمون السيارة ، حين يلجأون إلى طبع كتبهم فى المطبعة ، الكتب التى تهاجم الحضارة ، وتصنف حضارة الغرب بأنها ظلام فى ظلام ، والمطبعة نفسها ثمرة من ثمرات العلم والحضارة فهل تجدون أيها القراء الأعزاء تناقضاً أكثر من هذا التناقض ؟ بل إننا إذا كنا نجد اليوم أناساً يدعون

إلى الوقوف عند كتب التراث فى مجالات الطب والطبيعة وغيرهما ، فإن هذه الدعوة من جانبهم تدلنا على نوع من القصور فى أفهامهم ، إذ أن كتب التراث لا تستطيع أن تهدينا إلى اختراع من المخترعات التى ننعم بها الآن[1] ، إن العلم قديماً كان يسوده الكيف ، والعلم الآن لم يؤد إلى العديد من التطبيقات التكنولوجية إلا لأنه أصبح كماً ، وكماً فقط .

ويحاول محمد عبده فى هذا الفصل أن يؤكد على ما سبق أن أشار إليه فى مواضع متعددة من كتابه ، وهو التفرقة بين الإسلام ، وبين ما نراه الآن من جمود عند بعض من يطلقون على أنفسهم أنهم رجال دين ، والدين منهم براء . إن سياسة الظلام – فيما يرى محمد عبده – هى التى روجت ما أدخل على الدين من أشياء ليست من الدين من قريب أو من بعيد . إن ما نسميه الآن إسلاماً ، ليس بإسلام ، وإنما أفعال وأقوال حرفت عن معانيها ، وبحيث يمكن القول بأن كل ما يعاب الآن على المسلمين ، ليس من الإسلام ، وإنما هو شىء آخر سموه إسلاماً .

والواقع أن القارىء لهذا الفصل يشعر بغيرة الإمام محمد عبده على الإسلام ودفاعه عنه دفاعاً مجيداً . إنه يحارب التقليد والجمود محاربة شديدة ويرى أن الجمود عند النص الدينى هو الذى أدى بالمسلمين إلى التأخر وعدم اللحاق بالأمم الأخرى . وكم يذكر لنا محمد عبده العديد من الأمثلة التى يؤكد من خلالها على صحة الآراء التى يذهب إليها . وإذا كان محمد عبده يبدو متشائماً خلال حديثه عن أحوال المسلمين فى عصره ، إلا أنه يبدو متفائلاً تماماً حين يتحدث عن المستقبل . إنه يرى أن أمر العالم لابد أن ينتهى إلى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم .

هذه هى أبرز النقاط التى تعرض لها محمد عبده فى دراسته لموضوع

---

(١) يقول طه حسين بأنه يجب علينا دراسة العلم كما يدرسه الأوربيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون . وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار إلى طب ابن سينا وداود الأنطاكى (كتاب من بعيد ص ٢٤٦)

« الإسلام فى القرن العشرين » . ولاشك أن محمد عبده على علم شامل ودراية تامة فى تحديده لأوجه قصور المسلمين وأوجه العلاج أيضاً . إنه كرجل دين على الأقل ، يعد واعياً تماماً بأصول الدين من جهة ، وسلوك بعض المسلمين ورجال الدين من جهة أخرى ، هذا السلوك الذى يراه مبتعداً تماماً عن الدين كما ينبغى أن يكون الدين ، الدين الذى فهمه الأسلاف فهماً عميقاً جيداً ، فى حين أساء إليه نفر من المتأخرين أصحاب العقليات المظلمة الجامدة المغلقة .

ولكن لابد من الإشارة إلى أن القارىء لهذا الفصل يشعر بعدم وجود وحدة عضوية حين تصدى محمد عبده لدراسة موضوعه الرئيسى . إنه ينتقل من مجال إلى مجال آخر ، ثم سرعان ما يعود إلى الحديث عن المجال الأول ، وهذا يجعل الفصل أقرب إلى الخواطر والذكريات منه إلى الموضوع المتماسك الذى يتصف بالوحدة العضوية الدقيقة .

يضاف إلى ذلك أن محمد عبده فى حديثه عن « العلم والدين » لا يفرق لنا بين علم وعلم آخر ، لا يفرق بين علوم دينية وعلوم قد لا تتصل بالدين اتصالاً مباشراً ، لا تتصل به من قريب أو من بعيد . وهذا يؤدى بالتالى إلى الاعتقاد بأن محمد عبده من المفكرين الذين يذهبون إلى أن الدين قد أدى إلى التوصل إلى جميع المكتشفات والنظريات العلمية . وهذا من أكبر الأخطاء التى وقع فيها محمد عبده ووقع فيها أيضاً عديد من المفكرين أمثال عبد الرحمن الكواكبى . وكم دعانا مفكرون كبار من أمثال طه حسين وخاصة فى كتابه « من بعيد » إلى أهمية التمييز بين الدين من جهة ، والعلم من جهة أخرى . لقد أشار طه حسين إلى محاولات الشيخ محمد بخيت والشيخ محمد عبده فى مجال استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية . لقد ذكر طه حسين أن الشيخ محمد بخيت فى محاضرة له نشرت بجريدة السياسة وقد خصصها للرد على رينان ، قد بين لنا أن الإسلام يشتمل على أصول العلم الحديث ، كما حاول أن يستنبط من القرآن الكريم كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار . كما أن الإمام محمد عبده – فيما

يقول طه حسين – قد حاول مثل ما حاول الشيخ محمد بخيت .

ومن الواضح – كما أشرنا أكثر من مرة – أنه يوجد العديد من الأخطاء التى تترتب على تلك المحاولة ، إذ أن النظريات العلمية تتغير . وإذا اجتهدنا فى استخراج النصوص الدينية التى تثبت لنا نظرية علمية نقول بها فى زمن من الأزمان ، فكيف يكون حالنا إذا توصل العلماء إلى نظرية علمية تختلف عن النظرية التى كانت سائدة فى الماضى . وكم توجد شكوك حول العديد من النظريات العلمية فى كثير من المجالات .

يقول طه حسين : « أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين ، وهذه النتائج الكثيرة المختلفة والمضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتى تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع لا تصل إليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه مرة أخرى ، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوؤه ... إنا لنحسن الإحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه ، فماذا يرى العلماء ؟ » (كتاب من بعيد ص ٥١ – ٥٢ . وعنوان المقالة شك ويقين وقد كتبها فى باريس عام ١٩٢٣) .

ولا نود الوقوف طويلاً عند هذا الموضوع الشائك والذى ما زلنا حتى أيامنا هذه نجد جدالاً كثيراً حوله . وكل ما نود أن نقوله هو أننا إذا كنا نجد قوماً يظنون أن من مصلحة الدين ، استخراج النظريات العلمية منه ، فإنه يعد ظناً خاطئاً ، إذ لابد من التمييز بين قولنا بأن الدين يدعو إلى النظر العلمى وأنه لا توجد آية من الآيات القرآنية تمنع الناس عن التأمل فى الكون ، وبين محاولة استخراج نظريات علمية من الآيات القرآنية . وهل يصح لنا إلحاق الثابت وهو الدين ، بالمتغير أى العلم ونظرياته ؟

أما الفصل الأخير من فصول كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية »

فموضوعه ، « الإسلام ومدنية أوربا » ومحور هذا الفصل الرد على أمر من الأمور التى ذكرتها مجلة الجامعة وهو أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة .

وقد ناقش الإمام محمد عبده هذا الموضوع مناقشة واسعة ، وبين لنا من خلال مناقشته أن الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم مما أدى إلى استكانته وخضوعه ، ولو شاء ألا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

وهذا يعنى أن الشيخ محمد عبده يؤمن بأن تقدم العلم فى أوربا إنما يرجع لا إلى طبيعة اعتقادات رجال الدين المسيحى ، بل يرجع إلى قوة العلماء الذين ألزموا الدين ورجال الدين بحدود معينة لا يمكنهم تخطيها ، تماماً كما نفصل بين الدين من جهة والسياسة من جهة أخرى .

وينتقل محمد عبده إلى بيان كيفية تشجيع الإسلام للعلم والعلماء فى عصور قوته ، وكيف كنا نجد تواكباً بين العلم والدين ، وبين العلماء من جهة ورجال الدين من جهة أخرى ، ولا يقول أحد منهم للآخر : إنه زنديق أو كافر أو مبتدع . أما فى حالات الضعف فإننا نجد انتشار القول بالزندقة أو الكفر من جانب رجال الدين فى حديثهم عن أهل العلم . لقد تولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بإرشادهم فى أغلب الأحيان ، أناس كانوا على ضلال ، وقد أدى ذلك – فيما يقول محمد عبده – إلى ضعف المزاج الدينى ، ومتى ضعف المزاج ، استعد لقبول المرض .

ويحاول محمد عبده أن يعطينا العديد من الأمثلة التى يقصد من خلالها المقارنة بين الإسلام فى قوته ، وبين الإسلام كما يوجد فى عصره . وهذه الأمثلة ليس فيها جديد ، إذ نجده يشير إليها فى كثير من كتاباته عن الإسلام . ويعيب تلك الأمثلة أنها تنطلق من اتجاه الشيخ محمد عبده إلى التعميمات الخاطئة واللغة

الخطابية الإنشائية ودون أن يضع فى اعتباره وجود العديد من الأمثلة المضادة لرأيه . إنه يتفاخر بالغزالى وينسى أن الغزالى كان ضيق الأفق وجامد الفكر فيما نرى من جانبنا وذلك حين اتجه إلى تكفير الفلاسفة فى مجموعة من الآراء التى قالوا بها . كما أن محمد عبده يعيب على بعض الناس هجومهم على ابن تيمية ، وينسى محمد عبده أن ابن تيمية كان شغوفاً هو الآخر بإطلاق أحكام التكفير على عديد من المفكرين والفلاسفة والصوفية ، كما أن ابن تيمية يمثل طريقاً مغلقاً منغلقاً على نفسه لأنه لا يقبل التأويل ، أليست تلك الأمثلة كلها تؤدى بالقارىء إلى عدم اقتناعه بواقعية الأدلة التى يذكرها محمد عبده . لقد كان من المنتظر من الشيخ محمد عبده أن يبين لنا أوجه القوة وأوجه الضعف التى نجدها فى كل مفكر على حدة ، إذ أن هذا يعد أفضل بكثير من ولعه بالتعميمات واطلاق أحكام لا نجد أدلة مؤكدة على البرهنة عليها .

إنه على سبيل المثال يشير إلى مسألة العلاقة بين الدين والعلم ، أو الدين والعقل ويفترض منذ البداية ضرورة الربط بينهما وبالتالى إنكار التمييز بينهما على أساس أن العلم من ثمار العقل ، والدين من وجدانات القلب ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما . إنه يذكر هذه القضية ولا يكلف نفسه مناقشة القائلين بذلك القول مناقشة مستفيضة وبحيث يبين لنا ما قد نجده من جوانب ايجابية فى الفصل بين الدين من جهة والعقل أوالعلم من جهة أخرى ، بل نراه مكتفياً بالحديث حديثاً خطابياً عن هذه المسألة وكأنه يفترض أنه لا خلاف بينهما ، ويسقط من اعتباره تماماً الحديث عن أوجه الضعف فى محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة والتى قام بها أكثر فلاسفة العرب فى المشرق والمغرب . إن محاولات التوفيق بينهما لم تمنع الغزالى من الهجوم على الفلسفة والفلاسفة وبحيث وجدت الفلسفة أنه لا مفر من الهجرة من المشرق إلى المغرب . ولم تمنع محاولة ابن رشد فى المغرب العربى ، من وقف تيار الهجوم على الفلسفة والفلاسفة بعده وبحيث نجد عصر الفلاسفة قد انتهى منذ وفاته وحتى أيامنا الحالية فى عالمنا العربى كله من مشرقه إلى مغربه . إن هذا كله يؤكد لنا أن محاولات التوفيق

بين الدين والفلسفة ، أو بين الدين والعلم تعترضها الكثير من المصاعب والتى تعد مصاعب جوهرية لا سبيل إلى تخطيها .

أما تفرقة محمد عبده بين محاولات الاضطهاد فى المسيحية من جهة ، والإسلام من جهة أخرى ، فإننى أعتقد أنه قد جانبه الصواب فيها . وكان الأجدى له تعميم القول بالاضطهاد من جانب كل منهما طالما أنه يفرق بين الدين من جهة ، وفهم الدين من جانب بعض ذوى النزعة المتحجرة الضيقة من جهة أخرى .

وقد كان طه حسين على حق حين ذهب فى كتاباته وبعد وفاة محمد عبده ، إلى أنه ليس فى طبيعة دين من الأديان الدعوة إلى الاضطهاد ومحاربة الجديد . إنه يقول فى كتابه « من بعيد » الحق أنه ليس فى طبيعة الإسلام ولا فى طبيعة المسيحية ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى . ولك أن تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن فى القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن فى البحث ، فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته ، أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأى قليلاً أو كثيراً . ليس فى الإسلام ولا فى المسيحية إذن ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأى ، لم يكن فى الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأى أيضاً . ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعاً على حرية الرأى اعتداء يختلف قوة وضعفاً (ص ٢٢٠)

ومن الواضح أن محمد عبده من خلال حديثه عن الإسلام ومدنية أوربا ، يريد أن يبين لنا فضل الإسلام والمسلمين على أوربا ، وكيف أدت العلوم عند العرب دوراً ملموساً فى تشكيل المدنية الأوربية . وكم نجده يذكر العديد من الأمثلة التى يوضح من خلالها وجهة نظره .

ونود أن نقول فى آخر دراستنا للموضوعات التى تضمنها هذا الكتاب الرائع والبالغ الأهمية للشيخ محمد عبده ، أن أكثر الآراء التى تركها لنا مفكرنا

محمد عبده تدلنا على أنه كان سابقاً لعصره ، تدلنا على أنه كان يتمتع بعقلية نقدية دقيقة من النادر أن نجد مثيلا لها حتى عند مشايخ عصرنا الحالى . وكم نجد فى كتابه من الدروس التى نحن فى أمس الحاجة إليها الآن ورغم مرور أكثر من ثمانين عاماً على وفاة الشيخ محمد عبده . إن كل الظواهر التى نشاهدها الآن ونحس بها إنما تدلنا – إذا ابتعدنا عن التفاؤل الساذج والتزمنا بالموضوعية – على أن عالمنا العربى الإسلامى يتأخر إلى الوراء ولا يتقدم خطوات إيجابية ملموسة نحو ما هو أفضل ، نحو ما يعد ضرورياً لنا حين نواكب روح الحاضر وروح المستقبل . لقد أسرفنا فى المناقشات اللفظية العقيمة والتى تعد كالأرض القاحلة الجدباء . فهمنا العلم فهماً خاطئاً واكتفينا بالتغنى بالماضى والبكاء على الأطلال . ابتعدنا عن الديمقراطية كما ينبغى أن تكون الديمقراطية . بالغنا فى اثبات العلاقة بين الدين والسياسة وكأن السياسة لا وجود لها إلا من خلال الدين وتغافلنا عن مئات بل آلاف الحالات التى تمثل الاضطهاد وقمع حرية الفكر والتصفيات الجسدية والتى حدثت فى زماننا الماضى تحت ستار الحكومات الدينية أو هكذا يطلقون عليها .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد دعا من خلال كتابه إلى التمسك بالتأويل وعدم الوقوف عند ظاهر النصوص الدينية . وإذا كان قد كرر علينا فى أكثر فصول كتابه ضرورة التفرقة بين الدين فى طبيعته ، والدين كما يفهمه أناس يطلقون على أنفسهم رجال دين ، والدين منهم براء فيما يرى محمد عبده . وإذا كان قد دعانا إلى الاستفادة من علوم غيرنا من الأمم وعدم الوقوف موقفاً عدائياً تجاههم ، فإن هذه كلها دروس رائعة ، دروس ينبغى أن نستفيد منها .

والحق أن الفرد منا لابد أن يدرك قوة أكثر الحجج التى ذكرها الشيخ محمد عبده أثناء دراسته للعديد من الموضوعات الفكرية والدينية . لابد أن يشعر بالصدق من جانبه والرغبة الأكيدة فى إصلاح أحوال المسلمين والعرب . ويجب علينا أن نقف على أفكاره ، وأن ندرس اتجاهه الفكرى بكل دقة وموضوعية، ويقينى أننا سنتعلم منه الكثير سنستفيد من كتابه هذا وغيره من

كتب ، الكثير من الدروس . وإذا كنا نختلف معه فى قليل من الآراء التى ذهب إليها ، وبعض النقاط التى أثارها فإن هذا الاختلاف فى حد ذاته إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على ثراء فكره وعمق اتجاهه ، يدلنا على أن الرجل قد ترك بصماته البارزة على مسار فكرنا الإسلامى العربى الحديث . لقد دخل تاريخ فكرنا المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها . ومن حقنا أن نفخر به وبأفكاره ومن واجبنا الوقوف عند أفكاره وسبر أغوارها . ويقينى أن من يحاول إهمال أفكاره وتخطى الدور الذى قام به ، فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً ، إذ أن مفكرنا الإمام محمد عبده يعد علامة مضيئة فى تاريخنا الفكرى المعاصر ، ورائداً من الرواد الكبار الذين سعوا إلى التجديد ، إلى إنارة الطريق أمامنا ، إلى الربط بين الفكر والعمل ، إلى النظر نظرة مستقبلية إلى حد كبير .

يجب علينا إذن الوقوف عند أفكاره ولنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض . أما أن ننظر إليها من خلال منظور العبث والإهمال والنسيان ، فإن هذه النظرة تعد مرفوضة تماماً قلباً وقالباً لأننا أمام مفكر عملاق بذل أقصى ما يملك من جهد للدفاع عن الحقيقة فى كل زمان وكل مكان .

عاطف العراقى

مدينة نصر فى ١٩٨٦/١١/١٥ م



الشيخ محمّد عبده

الإسلام دين العلم والمدنية

الدين والمتدينون

الدين وضع إلهي

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للإبداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى[1] من عمل يديه نسجا أو خصفا ، وأكنانه[2] ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتغنمه فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالى[3] أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته إلى هاوية العدم ، وهو فى صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه ، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد عن آثارها ، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الإنسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

---

(١) الوجى : المرض الذى يصيب الرجلين من السير حافياً مدة طويلة .
(٢) الكنانة – المفرد : الكنى بمعنى السترة والجمع أكنان يقول تعالى : « وجعل لكم من الجبال أكناناً » .
(٣) مظاهر .

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقا من النظر إلى أحواله النفسية ، من الإدراك والتعقل والإخلاص والملكات والانفعالات الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص حميعا تابع لما يصادفه فى تربيته الأولى وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم ، مرامى أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه إلى الأسرار الإلهية أو ركونه إلى البحث فى الخواص الطبيعية وعنايته باكتشافه الحقيقة فى كل شيء ، أو وقوفه عند بادىء الرأى فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية إنما هى ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون ، أما هواء المولد والمربى ونوع المزاج وشلل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشى[1] الطبيعية فلا أثر لها فى الأعراض النفسية والصفات الروحانية ، إلا ما يكون فى الاستعداد والقابلية ، على ضعف فى ذلك الأثر ، فإن التربية وما ينطبع فى النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به وكأن لم يكن أودع فى الطبع . نعم إن أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لامن آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ماكسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا ، فالإنسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى .

□ □ □

هذا مما لايرتاب فيه العقلاء .. ولكن هل تذكر ، مع هذا ، أن الأعمال البدنية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وإن الروح هى السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لاتحتاج فيه إلى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان .. إنما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمة حق فى الدين . ولا أظن منكرا يجحدها .

إن الدين وضع إلهى ومعلمه والداعى إليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات ، فهو سلطان الروح

(١) الغواشى : الكوارث .

ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الإنسان فى نشأته لوح صقيل[1] وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال .

وبعد .. فموضوع الديانة المسيحية ، والديانة الإسلامية بحث طويل الذيل، وإنما نأتى به على إجمال ينبئك عن تفصيل .

الديانة المسيحية

إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء ، وجاءت برفع القصاص واطراح (٢) الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الإنجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد ، وهى فانية ، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهى لله وحده . فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرا فى الإرادة، يتبعه حركة فى البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين فى عقائدهم إليه ، فهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد فى استيفاء لذاتها ، ويسارعون فى افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات إلى طلب غيرها .

---

(١) السيف .

(٢) الابتعاد .

الديانة الإسلامية

أما الديانة الإسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها . ومن تأمل فى آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين ، فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ أن الشرع الإسلامى حرم المراهنة إلا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات .. إذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ، ولا فى اختراع الآلات . حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا[1] ، لم لايقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ .. هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما ؟

---

(١) ماهراً .

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيدة ؟ .. هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولايدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شىء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تغاضت النفوس عن الانتعاش بنقشته[1] ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ .. ماذا عساه أن يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات ؟ .. أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون فى الأنساب الدانية – أينسب هذا إلى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون فى طبائع البلدان ويتجاورون فى مواقع الأمكنة ؟ .. ألم يصدر من المسلمين وهم فى شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار وأدهشت الألباب ؟ .. ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسى السيادة فيها . كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها . ذكر ملكام سرجم (انجليزى) فى تاريخ الفرس أن محموداً الغزنوى كان يحارب وثنيى الهند بالمدافع ، وكانت هى السبب فى انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها . فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن فى قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت فى صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسائل لما هو أول مفروض فى دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن نجمل على ماشرطنا ..

إن الدين المسيحى إنما امتد ظله وعمت دعوته فى الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم

---

(١) بزخرفته

الأولى ، وجاء الدين المسيحى إليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الإقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم إن الأحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا إليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الأصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون .

أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال ، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق وماوضعه كذبة النقل من الأحاديث ، ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا إليها النبى وأصحابه .

إلا أن هذه العوارض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ، وإن كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولايزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلابد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الأغيان[1] ، وما دام

---

(١) الغشاء الذى يغطى شيئا ما . يقال : على قلبه غين يغطى قلبه ، أى ستار .

القرآن الكريم يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، لايعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فإننا لانرتاب فى عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل .

المسألة الإسلامية بين هانوتو والإمام
مقال مسيوهانوتو وزير خارجية فرنسا

أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية .

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا ، مدنية يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب فى الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى إليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ، ولكن كان لايزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله .

فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الإسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته ، جاء القديس « لويس » الذى ينتمى إلى أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالإيالات الأفريقية الإسلامية ، وعاود هذا الخاطر « نابليون الأول » فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنسيون إلا فى القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الإسلام التى كانت لاتنى فى متابعة الغارات على القارة الأوربية ، فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسى منذ عشرين عاما (١٩١٢) .

قد وصلت طلائع قوانا الآن إلى أصقاع من الصحراء تنتهى إليها كثبانها الرملية ، فعظم

اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت[1] ، وظنهم أنهم صاروا فى أمنع موئل ، شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة إليهم من « السنغال » أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها إلى « باقل » و « باماكوا » و « سيجوسيكورو » وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا إلى « النيجر » وبحيرة « تشاد » وأن مدينة « تمبكتو » المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام ، وأكد لهم هذه الأخبار أيضا رسلهم الذين يخترقون أفريقيا الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات « صانغا » و « تجاوندره » قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الألوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وأن وابوراتهم « فى الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلاً من البواخر » تشق عباب نهرى «الكونغو » و « الشارى » وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفها ، عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر ، وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن « فرنسا » يشبهونها بسرادق كبير إذا حاول الإنسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ، ويختمون كلامهم بقولهم : « قد كان هذا قدرا مقدورا » .

إذن فقد صارت « فرنسا » بكل مكان فى صلة مع الإسلام بل صارت فى صدر الإسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين وهى تدير اليوم شئونه وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الأرجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الأفريقية هى الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من « قرطاجيين » و« رومانيين » و « عرب » من آثار المدنية التى كانت القارة الأفريقية منبتا لثمارها اليانعة .

خطر الإسلام

إن شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه أربعين مليونا ، لا مرشد له إلا نفسه ، لا

(١) الخبت من الأرض ، ما انخفض واتسع –والمنخفض فيه رمل ، والوادى العميق الممدود . وخبوت هنا جمع خبت .

عائلات ملوكية فيه تتنازعه الحكم ، ولارؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام إدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساوى ضعف عدده ، وهو ذلك الشعب المنتشر فى الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة ، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الإسلامى السامى الأصل الذى يحمل إليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم إن ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الإسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى « مراكش » تلك البلاد الخفية الأسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه - قريب منا فى « طرابلس الغرب » التى تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الإسلام فى البحر الأبيض المتوسط ، وبين الطوائف الإسلامية فى باطن القارة الأفريقية - قريب منا فى « مصر » حيث تصادمت « الدولة البريطانية » فصادمتها إياها فى الأقطار الهندية وهو موجود وشائع فى « آسيا » حيث لايزال قائما فى « بيت المقدس » وناشرا أعلامه على مهد الإنسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد « الصين » فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونا المسلمين الموجودين فى الصين لايلبثون أن يصيروا مائة مليون ، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء « لساكيامونى » ، وليس هذا بالأمر الغريب فإنه لايوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرا فى الآفاق فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له زمرا وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادىء السلوك فى هذه الدنيا ، كما أن أمثالهم فى القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الإسلامى .. ثم هو ، أى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الأركان فى أوروبا عينها ، أعنى فى الآستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين .

□ □ □

فى باحات[1] قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف ، وتعمموا

---

(١) ساحات .

بالعمائم الكبيرة ، جالسين على الأرائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يتحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح ، منتظرين مجيء دورهم فى المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين ممن يقيمون فى « الآستانة » أو فى « مراكش » ، وفى أرجاء آسيا أو أصقاع أفريقية ، من بدو كانوا أو حضر ، واقفين فى أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين إذا حانت الصلاة ، يتوضأون أو يتيممون بالتراب ، مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة ، سواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤوسهم ، والذين يضعون السيف واليطفان فى نطاقهم ، أو يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة فى باريس ، فإنهم يولون وجوههم شطر جهة واحدة ، هى الأرض المقدسة ، هى الأرض التى تكتنفها الصحراء ، هى الأرض التى عاش فيها محمد ، هى الأرض التى تتضمن جسمه المبارك ، فى قبر لايجسر أحد على الوصول إليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هى الأرض التى جاء منها الآباء ويعود إليها الأبناء بحركة مستمرة ، هى الحج الأبدى إلى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم إلى هذا المكان المقدس ، ويمدون إليه أعناقهم ولا يجدون لذة فى الحياة إلا بأمل العودة إليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة . وخلاصة القول أن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة ، بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التى يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هى القطب الذى تنتهى اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة — من الركن الذى يقولون عنه إنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الإمام مستفتحا العبادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

ولا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجى الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن إسلامنا ولا علاقة له به ، لأنه وإن كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة بدار

سلام وانما هى « دار حرب » فإنها لاتزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الإيمان . والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليهم من بينها .

ترى فى قرانا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لايلويه عن ذلك شيء – هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ، ومن قرية إلى قرية ، راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الإسلام إنما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

□ □ □

إن العالم الإسلامى منقسم إلى طوائف وطرائق لا عداد لها ، ينخرط فى سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالأراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الأفريقية ، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى أن الفقير منهم لايرى فى إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة .. هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوو البر والإحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه إلى السكون ، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك إلا لأن الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التى أصابت الإسلام الأفريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهية المدنية الحاضرة ، وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل الإله آمون وقد هاجر أولاده إلى « كوفرة » . ومن مذهبهم التشديد فى رعاية القواعد الدينية ، وقد لبثوا زمنا مديدا لايرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها

وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية . غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى أفريقية الجنوبية ولم يكن الأمر مقصوراً على وسط القارة الأفريقية ، فإنه توجد بالآستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية ، تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا إذا أغمضنا الطرف .

□ □ □

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينقادون لأوامر سرية ، تناقلوها بالأفواه ، وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والأفواج منهم لمهاجرة أوطانهم ، والذهاب إلى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو .

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لاتزال موجودة فى ثنيات الفتوح ، وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ، ففى مسألة علائقنا مع الإسلام تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض ، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه .

المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع أنها من الأمور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . إن الدين هو الوسيلة التى تمهد للإنسان طريق الوصول إلى الحضرة الإلهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . إذا تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الإرادة ، أم للإنسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه ؟ .. وهل للإنسان الذى خلقه الله وسواه ، إرادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ، أم ترجع جميع أعماله من خير وشر إلى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

□ □ □

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الأديان ولا مذهب فلسفى إلى حسمها بكيفية يقتنع بها الإدراك ويرضاها العقل ، مع أن البحث فيها لإصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث ، إذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين .

وغاية ما عرف منذ العصور السالفة إلى الآن أنه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالأول منهما يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الإنسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ، ويذهب الثانى إلى رفع مرتبة الإنسان وتخويله حق القربى من الذات الإلهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات .

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وإيهان عزيمته ، بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى إلى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، إذ من قواعده أن الإنسان والكون يفنيان فى الذات الإلهية وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الإله بالإنسان فى أوصافه المادية ، يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الإنسان أو « البطل » يمكنه أن يعتبر فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته .

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان ، إحداهما ربانية ، والثانية بشرية . تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التناقض . أما الأولى فهى الديانة المسيحية الوارثة – بلا واسطة – آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وإن كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية ، على حين أن الديانة الثانية وهى الإسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالإنسان إلى أسفل الدرك ، وترفع الإله عنه فى علاء لا نهاية له .

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الأساسى لكلتا الديانتين ، وهو أصل الألوهية ، أما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الأصل إلى الثالوث أى أن الإله الأب أَوْجَدَ الابنَ واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون يسوع المسيح إلها وبشرا – هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشرى يمحو ذنب الجنس

البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول : « لا إله إلا الله » .

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة ، إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التى تقربهم إلى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الأحد الذى هو مستودع الآمال ولفظة الإسلام معناها « الاستسلام المطلق لإرادة الله » .

ترى الديانتان أو بعبارة أخرى المدنيتان المسيحية والإسلامية إحداهما ، بازاء الأخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما إذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخُلْف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الإلهية والحرية البشرية .

رأيان فى الإسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الأشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالإسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى فرأى فى الإسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا « الصرع » العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله إلى ما لانهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات .. الخ .. الخ .. » .

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون » وإن الواجب إبادة خمسهم « كما يقول أيضا » والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر « وهذا أيضا قوله » ... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ .. ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم .

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الإخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الإسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيو لوازون « القس ياسنت سابقا » معترفا ومقرا أن الاسلام هو الدين المسيحى محسنا ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالإسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الإشارة إليهم إلى وجوب احترام الإسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على مادونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « إن الاسلام قنطرة للأمم الأفريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه ، مقصورا على معاملة الإسلام بالتساهل ، والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد » .

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، لكنهما وإن افترقا ، متصل بعضهما ببعض وموجودان فى حيز واحد . وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدأين ، وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما .

وتلك الميول المتعاكسة التى برزت من مكان الاعتقاد إلى مجالى الفعل والتنفيذ ، هى التى أحدثت التناقض فى أعمالنا الاجتماعية والسياسية والإدارية ، وأدت إلى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم ، وإبرام مانقض إلى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولاسيما فى البلاد الأفريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، إذا فكر الإنسان فى أنه لايصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين أو خمسة فقط ، بل يسرى على نصف قارة بأكملها عديدة السكان

وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الأمان على الأهالى وإبطال التجارة فى الرقيق .

المسألة خطيرة

فالمسألة إذن خطيرة جداً ولابد من الاعتماد على أمر واحد فى حلها ، إذ لايكفى للوصول إلى هذا الحل ، تنميق عبارات وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول إلى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من ألزم الأشياء لموضوع تلك المسألة وأشدها ارتباطا به .

قد سبق لى وقتما تم تشكيل مملكتنا الأفريقية تشكيلا تاما ، أن سألت - ولازلت أكرر هذا السؤال - الحكومة أن تبحث بحثا علنيا فى علاقاتنا مع الإسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه .

إن الراغب فى الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه فى اتصال مع العربى ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، إذ منه يشترى الأرض التى يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطراً ، إذا كانت العلاقة بين الأهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم ، والقيام على شئونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل إذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أنعما النظر فى خريطة الأنحاء الواسعة والأصقاع القصية التى عهد إليهم أمر إدارتها وتنظيمها .

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الإسلامى . إن فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولايزالون

على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من بقية أخبارهم ، فهم إذا سئلوا أجابوا ، وإذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الأبحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الأمر الذى نحن بصدده ، وهو من أكثرها غموضا والتباسا ، فلماذا لانستعين بالوسيلة التى تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الأنوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى إذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الألسنة وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الأضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة وتقال الأقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه وتجتنى ثماره ، وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها . وكانت كلمة واحدة كافية لإقالتهم من عثرتهم وإصلاح هفوتهم. ولست أظن أحدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وإنما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها .

أشرت سابقا إلى الصلة الأكيدة بين السياسة والدين فى العالم الإسلامى ، والمسلمون فى الأحوال الراهنة شاعرون شعوراً قويا بإيمانهم العام ، غير أن إدراكهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية ، إذ ينحصر الوطن عندهم فى الإسلام ، فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم . ولم تدخل فى رؤوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الإسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية .

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباى ، وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الأمور الإدارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الأهلون ولم تنخدش له إحساساتهم ، إذا لبثت المساجد مغلقة فى أوجه المسيحيين ، والأملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها ، وتركت أزمة الأحكام بأيدى القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الأهلية إلا برضا وتصديق من الأهالى ، وربما كان يطلب منهم ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس .

إذن يوجد الآن بلد من بلاد الإسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . إذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الآسيوى . أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، أنبتت فى قضائها وإدارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ، ألا وهى البلاد التونسية .

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد إذ حكمت فيها قرطاجة ورومية وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ، حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الأحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الأراضى الخصبة والسماء الصافية الأديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها ولعل الأطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب فى الأقطار التونسية من المدنيات القديمة ، تندثر تماما ولم ينمح أثرها كى تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضى .

إن مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة « بيرسا » التى عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب فى هذه الأرض تحت رعاية فرنسا وإنسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش فى خلال الجيل الذى نطرق الآن أبوابه .

مقال هانوتو الثاني

من المسلم أنه يتعذر عليَّ الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التى ترد إلىَّ بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلونى شكرا جزيلا ، وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علىَّ وأبانوه لى محفوظ فى مخيلتى . ولا يبرح عن ذاكرتى ، وإننى أجد فى تبادل الأفكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع ، وبالرغم مما يخالجنى من الميل إلى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لامندوحة لى من العود إلى بعض المناقشات التى أثار عجاجها[1] الفصلان اللذان نشرتهما حديثا فى مسألة الإسلام ، والحق يقال إننى أصبحت بسببهما كما يقال ، بين نارين : فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : إننى تظاهرت بالميل للإسلام ، واتخذنى المسلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الإنسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون إلى بيان الحقائق بالتصور والتعقل إنما يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين .

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن أشير إلى طريقة من الجدل : كان الجهل بلغتنا ، وهو فى نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا فى اتباع بعض الجرائد الإسلامية لها وسيرها على سننها ، فإن جريدة « المؤيد » التى تظهر فى مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالأحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الإسلام ، ولعل القراء يذكرون أننى أوردت فيهما آراء كيمون التى أبداها فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » وأن إيرادى لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، إذ أشرت إلى خطر شدتها وأبنت العواقب الضارة التى يفضى إليها الجدال السياسى فى الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكى لا يختلط على الذهن شىء من أقوال كيمون التى أوردتها ، وضعت فى آخر كل عبارة من عباراته كلمتى « أنا أنقل » محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك .

---

(١) الغبار والدخان .

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت اليَّ تلك الأفكار التى عمدت إلى دحضها وإظهار فسادها حتى أن أحد كبار أئمة الدين الإسلامى[1] كلف نفسه مئونة الإجابة فى جريدة « المؤيد » على أفكار ليست أفكارى ، بل هى نقيض ما ذهبت إلى تعضيده واستحسانه فى بحثى ، ولذلك أرى أن ذلك الإمام العظيم صار فى بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته فى الأصل الفرنسى أم وقف عليه من الترجمة ، إما أنه لم يفهم مرادى وإما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتى التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى ، وكلها إحترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق على إحدى الجرائد العربية التى تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة فى جميع العالم الإسلامى ألا وهى جريدة « الأهرام » قد أتت بتلك الملاحظات أحسن مما أستطيع إيرادها به ، فإن محررها « المسيو تقلا » الكاتب الشهير الذى يدير فى آن واحد جريدة « البيراميد الفرنسية » قد اقتفى أثر ملاحظات الإمام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لى بعد مناقشته التى روعيت فيها أساليب اللطف والحذَق مجال للكلام ، أو شىء كثير من القول أضمه إلى قوله ، على أننى أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها فى نظرى كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهى أن منشأ المشاكل والصعوبات التى تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ فى معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، إذ كثيرا ما كان الغلط الناشىء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن إدراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأى من مرامى حيلة من حيل المناظرة ، سببا فى جر ما لا يحصى من المصائب بل سبباً فى انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ، وكانوا إلى الالتئام والاتفاق أقرب منهم إلى الخلف والانشقاق .

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا شيئاً حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التى لافائدة منها ، وتيسر العود إلى النقطة الأولى التى كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة فى تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التى جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل إن العالم ميدان يتنازع فيه بنو الإنسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة فى الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الإنسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما إذا كان فى الإمكان إصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ ، باجتهاد الناس فى فهم مقاصد بعضهم بعضا .

ومن الأمور التى لايزال خاطرى منصرفا إليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل

---

(١) يقصد الشيخ محمد عبده .

وأخطرها تتضمن فى ذاتها الحل الملائم لها والمطابق للإنصاف والسلام ، وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد فى المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار ، بأنه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الأهواء ، فإنهما يصلان إلى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما .

وقد اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة فى هذاالمعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع إليها كرامتها ، ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون إلى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء إليه القوى فهو من أخريات الوسائل وأحطها وهو حيلة من لاحيلة له .

ويظن الناس فى الغالب أن الواجب التفرقة بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأبين وغلط ، إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها ، وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية ، إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته ، لأننا إذا نظرنا فى أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينها ، أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بنى الإنسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن إرادتهم .

□ □ □

وقد حدا بى هذا البحث إلى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية . وقد انتهت إلىّ رسالتان غريبتان فى هذا الباب ، إحداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو « أحمد رضا » مدير جريدة « مشوريت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها « التسامح الإسلامى » وقصد بها الرد على الكتاب الغَربيين الذين يتهمون العالم الإسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال « لافيجرى » وهى : « أجاهر علانية بأننى أعتبر إثارة خواطر الشعوب الإسلامية بعدم التدبر فى دعوتهم إلى الدين المسيحى إثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون » وإنه ليفيض بى الكلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ، ولكنى

على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لايحدو بنا إلى الغاية السلمية التى نقصدها ، وإن الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض ، أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام .

وقد وردت إلى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الحاضر ، وإنى آسف شديد الأسف من عدم إمكانى نشر مضمونها بأكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ، ولاريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة إنشاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير أن فى المباحث الدينية ، ولوكانت متعلقة بالإسلام ، شيئا من الاكفهرار والتجهم . على أن هذا لا يمنعنى من إيراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الإسلامى ، وها هى : « فيما يتعلق بالإيمان والضمير كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبى محمد ﷺ ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة مما يخوله لأنفسهم رجال الاكليروس « الدين » فى الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى ، وهو ما يؤخذ منه أنه لوسأل أحدهم ما هو الإسلام ، لأجاب المسلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف - فالديانة القرآنية لاتهوى بالإنسان بإقصاء الإله عنه فى نهاية الفضاء - إذ جاء فى القرآن الشريف « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . هذا الدين فرق بين الإنسان من وجهتيه الأدبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفيةٍ موافقةٍ للإدراك البشرى » . ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الإسلامى يراه أرق وأحسن ما يدفع عنه به ، وأخذ يعتب علىَّ لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ، ذريعة إلى قصر الكلام على المسألة السياسية .

وإننى أعترف بأننى انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس إلى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها إلى غيرها ، وإذا كان القارىء لايمل حديثى فإننى أورد هنا بإيجاز كيفية الأسباب التى حملتنى على هذه السياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والإسلامية :

لما كنت أقرر مباحثى فى تاريخ الكردينال ريشليو ، وصلت إلى النقطة التى أفضت به الظروف إلى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التى حومت حوله ، واستلفتت أنظاره ، ففى أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ ، أى فى إبان استلامه زمام الأحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم

فى المسألة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت فى المسألة الصليبية .

وكان يوجد فى فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التى اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل فى هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره [1] فى خطاه الأولى ، ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ، ومنهم الدوق دى نيفير ، والأب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم فى أفكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء فى ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة مارى دى متديسى الذى أجلس ريشليو على منصة الأحكام ، وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين .

فما كان من الكردينال ريشليو إلا أن قطع كل صلة من أصدقائه رافضا أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف إلى ناحيته ثم ولى وجهه عن الإسلام فحارب – كما هو مشهور – الأسرة النمساوية . والحق يقال إن الكردينال كان من أقل الناس تعصبا ، فإنه قبل أن يأتى بما عمل به ، بنى عمله على أسباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وأن هذه الأسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لإظهارها .

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال فى أسبانيا وأفريقيا إلى حيث تلك البقعة التى تم بها الاقتران بين العالمين الشرقى و الغربى ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب أخرى على النقلة إلى تلك الأصقاع باحثا ومفكرا . شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أى أطلالها فى عهد هانيبال والقديس أوغسطين وفى عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لى وأنا واقف على تلك الطلول أن الأرض التى كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام .

أما الأسباب التى حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها فى يوم ما . ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة العيانية فى الحاضر قد توصلت إلى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام فى عين المكان الذى اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فأشرت إلى السلم الناشىء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لايظن أنهما يجتمعان فى وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الآخر . لما لاحظت هذه الأمور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب

---

(١) قاموا بتأييده .

المرام ، إذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما يكن من الأمر فإن من الأمور المهمة قيام الأفكار فى البلاد المسيحية والإسلامية قياما إذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الإبعاد والتفريق .

هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشىء مما خطأه به الأستاذ الإمام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح .

حديث هانوتو مع صاحب جريدة «الأهرام»

فى يوليو سنة ١٩٠٠ – الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الأستاذ الإمام سافر الأستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد « الأهرام » يوم ١٦ من هذا الشهر ، وقد قدمه صاحب « الأهرام » بما يلى :

رأيت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو وأقف منه على حقيقة الأحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الأخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق ، وكنا نعتقد ، كما قالت « الأهرام » مرارا وتكرارا ، أن تقدم الشرق يكون بتقدم الأمة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فأذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا إلا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطنى الفرنسيين ، ولم أستشهد بكيمون وهو يونانى الجنس ، إلا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها ، فإن كثيرين من الكتاب الألمانيين والفرنسيين والانجليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم أن تقدم المسلمين مستحيل ، ونجاحهم بعيد ، لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة ، وهى أنه كلما تقدمت أوربا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى ، وإن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع أن الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ماكانت عليه فى السنين الغابرة ، وإنما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادى أن الإسلام لا يحول دون الإصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس ، فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالى ، وسياستى هذه هى روح كتابتى السابقة وإنها ستكون روح اللاحقة .

والذى دعانى إلى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن إعادة الكرات الصليبية كما كان فى العصور الخالية ، وما دفعهم فى الأيام الأخيرة إلى ذلك إلا الحوادث الأرضية وغيرها ، ولما كنت قد وقفت نفسى لدراسة حياة ريشليو السياسى الشهير، وسرت فى أكثر أعمالى وكتاباتى على منهاجه ، وعرفت أن هذا الرجل مع أنه كاثوليكى وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع أنه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا فإذا كان هذا السياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين إليه فى تلك الأعصر ، أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم إنفاذها . لا لعمرى ، فلهذا عارضت بالأمس ، ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأى العام إذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لايريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولاسيما الحرب الدينية ، فهى عدوة المدنية بل هى أفظع الأعمال .

على أن معارضتى لأمثال هؤلاء الكتاب ، أى نقضى لأقوالهم ، لا يمنعنى عن أن أقول لكم الحقيقة ، لأنه يستحيل على أن أقول إن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا فى العدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل على أن أقول إن حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسى ، فاعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فإن المتحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية فى أحوال الحكومات وشئون الشعب ، وأن يكون للمعتقد حق الأدبيات الدينية بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

واعلم أن الذى أيد هذه السياسة أيضا فى بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة روما وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أى الكردينال ريشليو ، فهو الذى قال بفصل السلطتين ، ولم تنسه واجباته الكنسية الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، إذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام .

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين فى مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقائد الشعوب التى تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ماسرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية .

□ □ □

وإنى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ ، وكاتب حر الضمير ، لاشأن لغيره فى معتقده الخاص ، ولكننى أحترام أدبيات كل دين ومعتقده ، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرها ، ولكن الماديات غير الأدبيات والأولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت ، إذ لاحياة بلامادة ولهكم أنتم أيها الشرقيون إله أوربا وإله أمريكا ، إذ أن إله الجميع واحد ، ولايمكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربى منه على الأمريكى ، فالشرق ، بل إن الشرقيين عموما ، أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا ، وكثيرا ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأمريكى منه إلى الأوربى أو الشرقى ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حى ، هذا يشتغل مجتهدا ، وكلما زادت أرباحه زاد نشاطا وإقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى وضيق أوربا بأهلها دفعها إلى الاستعمار فى كل صوب ، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لاحراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها .

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : إذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد أنهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ، ولماذا لاتسأل الحكومة الفرنسية أن ترى فى أحوال هؤلاء ؟

فقال : أما التونسيون فلا خلاف فى أنهم مسرورون بحالتهم ، ونحن قد دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف (1) فرق شملها أفراد حكموها . وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ، ولم نسألهم إلا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لا ضم المستعمرة إلى فرنسا ، كما فعلنا فى مدغشقر بالرغم من معارضتى ذلك ، وقد رضيت به منقادا لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا فى ذلك ، وسأكتب كثيراً فى هذا الموضوع ، لأنى ذهبت بنفسى إلى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأملى ألا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الإصلاح الذى طلبه غيرى وشرعت حكومتنا فى إنفاذه .

قلت : إنى أعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال

---

(1) المستوى من الأرض .

شعوب القطرين ، « تونس والجزائر » ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولاسيما فى الحكومات الإسلامية ، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا إلا خصوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم .
قال هانوتو :

أنا لاأسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن أعتقد أن أوربا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطتين ، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة ، كما أنى أعتقد أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية ، وأعتقد أيضا أن صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجرى إصلاحات لا يقدر غيره عليها ، ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانجلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها إلى حدود أفغانستان ، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس ، والمملكتان إسلاميتان ، فإذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية ، وإذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟.. وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لايعتقدون اعتقادكم ؟ فإذا قلتم إن أوربا تحول دون الإصلاحات ، إذن ، فلم تأخرتم واليابان تقدمت ؟.. وهى لم تشتغل إلا ربع قرن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم ، فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى .

وإذا قال لكم أولئك الكتاب إننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون إصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ .. أيظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين

وأنا أعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قد حان لكم ألا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ، مادام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على مايأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين .

وإنى أقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ماكتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى لهم وأنا فى منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسألة الأرمنية ، فإذا كان

هذا رأيهم فى صديق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟.. ولكن فليعلم هؤلاء أنه إذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يقبل مثل تلك السياسة . ولا أقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب الشرقية ، فإن الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين .

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه ، فكلاهما راض عن حاله ، ومفضل لها على كل سلطة أجنبية أو أوربية ، والذى ينفر الشرق هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى .

فقال الوزير بعبارة صريحة : إن هذه الأقوال خيالية لاتنطبق على حالة أوربا فى هذا الزمان ، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد اندفعت إلى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم أن فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى إلى الاقتداء بالدول المذكورة . وإنى أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانجليزى ، وينتصرون للفرنسى على الألمانى ، ولكن أما حان لهم أنْ يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ .. لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لإصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لاتعتد بها أوربا اليوم . وأنت تعلم أن ألمانيا أكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وأبعدها عن الاستعمار ، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين ، وهى التى سألت إمتياز إنشاء « سكة حديد » بغداد ، مما يدلكم على أن أوربا لاتسعى إلا إلى مصلحتها السياسية .

ثم قال لى : أنت تقول لى إن الساسة المسلمين لا يعتقدون بإخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما أن أكثر الدول تطمع فى أملاكهم ، وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا .

□ □ □

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية ، ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة

إلى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ، ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تدخل أوربا فى أعمالهم ، ومن أفعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء أكان فى بلاد الدولة أم فى سفاراتها ، وأنت تقول لى إن فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل ، وإليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين أن تنكروا أن بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى أوربا ، فإن هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانجلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا وألمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل أغراضها فى المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الأرمنية ، بالرغم من هياج الرأى العام الأوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

وإذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا أن فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت الدول العثمانية ضد دولة ثانية مسيحية ، مما يدل على أن ضالة أوربا مصلحتها الاقتصادية والسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ، ولعمرك هل منع ألمانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا [1] وفرنسا المسيحيتين ؟ .. وألم تحارب إيطاليا أوستريا ؟ .. وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكى من أن تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسى ؟ .. وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستانتى الألمانى والكاثوليكى النمسوى والإيطالى ، وهذه الترنسفال دينها كدين انجلترا وأهلها من أقرب العناصر إلى الجنس السكسونى . وقد حاربها الانجليز وغرضهم سلب استقلالها .

□ □ □

كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق .

وإنى أتساهل معك وأقول ، إن بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وإن هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين ، ولكن إذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهى فى أوج

---

(١) النمسا

مجدها وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ .. وإذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الإسلام ، لأن أوربا مسيحية ، وهو زعم باطل ، فهل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الإسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ، ويمنعها عن إنفاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ .. وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ .. أترضى به أوستريا ولها البوسنة والرسك وهى طامعة فى غيرهما ؟ .. أم تقبله فرنسا مع أملاكها الأفريقية الواسعة ؟ .. أم تؤيده إنجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ .. أم تعضده روسيا ؟ .. أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ .. كأنى بهم هم الذين يريدون إنفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأى العام الأوربى إليهم .

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على القليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وأن يعملوا فى الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا إقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أى كما فعل اليابانيون فى السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من أوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوربى وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى ، لأنه عنصر غريب ، لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والإقدام ، ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا .. ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الأقصى والأقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية .

□ □ □

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين إذا رجعوا إلى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة

لأمتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها .

وتقول لى إن النهضة العلمية بدأت فى مصر ، وأن بعض الأفراد أنشأوا المدارس ، وأن الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام ، وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الإصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح ، ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لأنى أرغب رغبة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى إقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما أن العلم وحده لايكفى وقد يضر إذا لم يمزج بالتهذيب ، فإنى لا أجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا أيضا ، ولكننا رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوما لأنى أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا إذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لايجمع إلا عنصرا واحدا ، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والأرثوذكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسى .

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الأولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . وإلى هنا أكون قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق .

الرد الأول

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريدة « المؤيد » نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق .

بحثه السابق وشيء من تتمته إنما هو دافق من غيرته على شئون دولته ، يريد أن يدعو قومه إلى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم فى ممالكهم ، وذلك لايتم على مذهبه إلا بالبحث فى طبيعة الأمر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضل المسلمون سلطة إسلامية على سلطة فرنسية . فإن أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا ، وطاب الجوار فى قلوب الملة الإسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنسي فى طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الأرض وإلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم إلى قارة أخرى .

ولهذا جره البحث إلى النظر فى أصول دين المسلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين أديان أشار كثيرة إليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما فى نفوس معتقديه . أما غايته من البحث وتناوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين ليثير عزائمهم إلى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة فذلك أمر نكل فائدته إليه وإلى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والإنسانية . ونلفت إليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بآداب الأمة الفرنسية

ويطربون إذا ذكرت المدنية الفرنسية .

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو إلى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار – حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها – حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب .

أما ما جاء فى التحكك بأصول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم .

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها إلى ذهنه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم .

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السامى والتفريق بينهما ، وأن أحدهما قهر الآخر وأن التمدن الآرى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك .

□ □ □

إن مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه « الهند » لايزال إلى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه . ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لايمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها ما دامت الأرض أرضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولايباح له أن يرتقى إلى طبقة ما فوقه إلى إنقضاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لايباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وأنه لايليق بالانسان أن يهتم بشئون العيش ، وهو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى ، وهو لم يعرفهم إلا فى آخر الزمان . ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية .

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل إليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطار الغربية ؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وإنما جاءها هذا بمخالطة الأمم السامية كما

يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين وهم أساتذة الأوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون .

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ .. نعم ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقتما ظهر الإسلام .

□ □ □

ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ، وها هى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ .. زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى سائر الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعا يبهر أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون .

إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالا بإجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الإسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ إلى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنسية التى تنقاد بذكائها إلى الأذكياء . والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها إلى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وإنما العسر كل العسر أن يوجد ذلك العارف اليوم .

□ □ □

إن الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها .

إن صح الحكم على الأديان ، بما يشاهد فى أحوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة ، فإن الإنجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شىء من دقائق معناه ، يأمر الإنجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قميصا أن يعطوه الرداء أيضا ، وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الأب ، ويقضى عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التى تليقُ برسول إلهى ربانى يدعو الناس إلى الإنقطاع عن هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباق .

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل ، وهل رأى مثالا لذلك فى المدنية الآرية التى تآخت مع الدين المسيحى ؟ .. العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن . فإن هذه المدنية إنما هى مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل [1] والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولادخل للانجيل فى شىء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لايشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم ، وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الإنجيل وهم جماعة من الأمريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة ، فإن كانت هذه هى المدنية الآرية التى صارعها الدين الإسلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

---

(١) الخداع

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ، ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة إلى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، أو استكمال شأن من شئونها . وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الارى يعنى به مايقابله .

وإنى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به إبراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس – وهو يعرفها – فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته إليها سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الإنسانى ، وسنأتى على الكلام فيها .

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون فى إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه ، أنى إن صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم إلا العلم والسلام .

الرد الثانى

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من أمهات مسائل الدين ، القدر والتوحيد أو التنزيه . وبعد أن خلط فى بيان وجه الاشكال فى المسألة الأولى واختلاف الناس فيها قديما ، وأنهم انقسموا إلى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لاعمل لإرادته فى فعله ، وذاهب إلى أن خالقه

وهبه اختيارا يتصرف به ، فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال إن الرأى الأول يحط الإنسان إلى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه إلى ذروة القوة ، ثم وصل الأول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الأزلى ، والثانى بمذهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الإله بالإنسان فى أوصافه المادية ، وأن الأول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقديه إلى مراتب الكمالات الانسانية ! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والإسلامية وقال : إنهما تمثلان ذينك المذهبين ، أى مذهبى الناس فى القدر ، وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالإنسان إلى المقام الإلهى ، والأخرى تنزل به إلى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً بينا فى الأصل الذى بنى عليه كل منهما ، فأصل الأول هو إيجاد الإله الأب للإله الابن حتى كان إلها بشرا ، واتصال الإلهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الإله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الإنسان ، ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين وردهما إلى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما إلى آخر ما أطال به على غير جدوى .

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم فى ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شىء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد بإحاطة علم الله بكل شىء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخلاف فى المسألة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الإسلام واستمر إلى هذه الأيام . ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين – أتباع القديس توما – أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع « لويولا » وهم قدرية واختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه إلى غيرهم .

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين « وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاديف إلى جزائر بريطانيا » أنه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه إليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الأديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت

منهم أوربا فى زمن من الأزمان ، وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة – ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بإبطاله – وهو مذهب القائلين أن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده إلى سبب . أليس هذا أدخل فى باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون ، وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف .

□ □ □

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالإسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » – بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء فى تقرير السنن الإلهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الإلهية فى أخلاق الأمم أو فى تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما .

وجاء النبى ﷺ فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذى لايكل ، والدائب الذى لا يمل ، والساهر الذى لاينام والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى اتمام دعوته قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب ، وضمان الله لإعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطا ، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزما واحتياطا .

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين وكانوا أكمل الناس ايمانا بإحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار ، وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الإسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله .

هذه هى العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الإسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الأرض ، لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها . واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية .

ولكن وا أسفاه نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش [1] الآريين [2] ، وقذفت به فى الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره .

□ □ □

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الإسلام وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان ، وأخذه عن المسلمين فى أخريات الأيام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين ، بفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم إلى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة .

---

(١) قمش : جمع الشيء من هنا وهناك .

(٢) نسبة إلى الجنس الآرى . وهو يقصد الأوربيين لأنهم من الجنس الآرى .

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين ، فإنه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الأولى .

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام [1] .

أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولانقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسألة القدر عند المسلمين .

والآن آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى تهجمه على الإسلام ، وما نعنى بالكلام فيه هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد « الاعتقاد بتجسيد الألوهية » ونبدأ بالكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الأول .

إن كان مسيو هانوتو قرأ شيئا فى أحوال الأمم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الإلهى ظاهران فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت لاتزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط ، تبتدىء من وثنيى أفريقيا وتنتهى إلى بوذيى الصين وبرهمن الهند .

□ □ □

كلما ارتقى الإنسان فى العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله فى أسرار الكون تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهى إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لأن مالاحد له محال أن تحيط بوجوده الحدود .

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشأوا وثنيين ولازالت الوثنية

---

(١) أوغاد الناس .

ترق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم فى ذرا مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع فى محو ما غشى نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التى نقلت إلى العربية أيام المأمون تحت اسم « المدينة الفاضلة » علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها .

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت أشد بهاء وأبهر سطوعا .

□ □ □

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء فى النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالية – الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للأبصار ومانفذت إليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا فى الإيجاد ولا فى الإمداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الإلهى أن يصل بنفسه إلى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شئونه .

ينقسم أهل التشبيه إلى قسمين : أحدهما من يعتقد الألوهية فى بعض الموجودات المشهورة ويقف عند مايعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر فى بعضها .

أما الأولون فهم الذين ضعف الإدراك فيهم عن الإحاطة بحقائق الأكوان ، فإذا ظهرت

عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوا ما ظهر ، المنفرد بالقدرة عليهم ، وأنهم إليه يرجعون فى جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وإنسان ، ولايزالون حيارى فى شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست بأبعد منهم فى النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى إرضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم . ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل فى محاريبها وتفترس الذبائح الإنسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، وأى درك ينحط إليه الإنسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده إلى اليوم معروفة .

أما الآخرون فهم أرق درجة من أولئك فى الإدراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا إذا فاقهم إنسان فى عقل أو شجاعة أو صدر منه ما لا يألفون من الأعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال ظنوه مظهرا للوجود الإلهى فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لإرادته فسلبهم كل ما كانوا يملكون من عقل وإرادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا فى استعبادهم . وكم قاست الأمم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه فى ملكوته ، كملك فى جبروته ، يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ، فإذا امتاز احدهم بما يعتقدونه زلفى إلى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين إليه رفعوه إلى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجأون إليه فى مهمات أعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . وإذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ .. استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء وورائهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم فكانت علومهم من أوهامهم ، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، إذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على مايستمدونه منهم ، ولايزال التاريخ يشهد

على ماقاسته الإنسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده فى كثير من الامم فى الشرق والغرب إلى اليوم .

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لاينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشأوا فى جوها الفاسد .

□ □ □

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالأفراد فى سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون فى كسب الفضائل من طرق التوصل إلى مقام الألوهية ولا أن الألوهية البشرية تركت فيهم أثراً صالحاً بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها أما السعى إلى الفضائل فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم .

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه إلى المسيحيين أنفسهم . ولكنى أقول إن المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم إلى الإله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند أهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة إلى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلو فى التشبيه ، ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسىء العقل وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد فى الأمم النصرانية ، حتى ظهر الإصلاح وقضى على ماسبقه ، واستقامت أوربا فى طريقها المعروف اليوم ، وقد أشرنا إلى شىء من أسباب ذلك .

□ □ □

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون إلهاً بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثراً لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له فى أن يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم فى أزمان مختلفة تصرح بأن هناك فرقاً بين ما لا يصل إليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت إلى أن المسيح لم يكن إلا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى « المختار » والأب على الرب الرحيم . وأعرف أن بعض طوائف

البروتستانت اليوم ، وإن كانت قليلة العدد ، تذهب إلى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفارى وأكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك .

وهل كانت المسيحية فى سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجم من وثنية إلى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم .

إنى أرفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحية فى جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتى هى أحسن . ولكنى أرجع إلى الكلام فى الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلا .

جاء الإسلام يدعو العالم بأسره إلى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ودعاه إلى الرجعة إلى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه ..

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الإسلام وكانت أكثر عدداً وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأساً ، فلم يكن إلا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه إلى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجاً من كل ملة ، فأعتقت الهمم ، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الإيمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين . ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه إلا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه إلا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان إلا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وأبرزوه للأنظار .

هذا أثر الإسلام وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون فى علوم السموات والأرض وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لأهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو .

إنى أكتفى فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الأمم الغربية اليوم : أقامت النصرانية فى الأرض ستة عشر قرناً ولم تأت بفلكى واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم

بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعناً فى أصول الديانة المسيحية وإنما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له .

□ □ □

يظن هانوتو أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم فى ذلك فإن الإسلام أفضى بالعبد إلى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه – قضى الإسلام بألا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرق إليهما – مقام الألوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الإنسان ، ويناله استعداده ، لا يحول دونه حجاب إلا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره .

إذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلاً . هكذا يرفع الإسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا هو معنى الإسلام والاستسلام الذى أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقى الإنسان مع هذا المعنى من الإسلام فى درك من الحيوانية وفى هجرة عن التوسل بالأسباب إلى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والإسلام إسلام والمسلمون مسلمون .

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم التشبيه ، وفى عوائدهم التمويه ، وممن تعلموا الاختراس[1] ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الأوهام حتى أنجزوا إلى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل ، وحصدت العقائل ، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه « كيمون » .

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت

---

(١) شرب كؤوس الخمر

نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ماهداهم الله إليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت له القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع .

□ □ □

يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو ، لولا مايقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل [1] رأيهما وضعف حلمهما .

ألا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الإنجليز مثل اسحق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من أنصاره » .

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال : « إنه يختار إسلاما لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر » .

ثم هو لايزال ينتشر فى الصين وغيرها من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارته ، وتنتهى به الملمات إلى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ماترجو إن شاء الله .

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهده فى الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا إليها وألا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجد فى إهلاكهم والدأب فى إخفائهم .

إن العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على

---

(١) فساد أو اضطراب

المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لايعرفون شيئا من هذه الأركان الثلاثة ولايزالون يهرفون[1] بما لا يعرفون حتى يصلوا إلى ما كانوا يحسبون فلينتظروا إنا معهم من المنتظرين .

(١) يتحدثون باطلاً ولغواً .

هـــانوتو والإســـلام

رد الإمام الثانى على هانوتو وفيه بحث الجامعة الإسلامية

ألقت إلى المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الإسلام .

ولم أشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر إلا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ماتضمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول إليه مما يدع فى أذهان الناس أثرا لايحسن السكوت عنه .

وقد جاء فى كلامه مايدل على أنه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت إليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيرة على الحق ألا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه فى جريدة « المؤيد » الفرنسية وأن يرسل إلى مسيو هانوتو ليقف على ماغاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمثال . لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم إلى عيوب فيهم لايسعهم إنكارها ، وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار فى ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخبال ، وعقد الآمال بإنصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المتهم بحماية ذماره[1] ، وطالب الطهر من عاره ، إلا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ

(١) ما يجب على الإنسان أن يحميه مثل الوطن والعرض .

من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة أو يكون مثلهم ، فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأمانى ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى ، وهو من روح قائله خلى ، حتى إذا دهموه وهو فى غفلته وأخذوه فى نومه أو يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب[1] العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق .

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبى منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة : « حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح » .

ولايخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهى غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله فى عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا فى قوله : « العدل تكافؤ القوى » .

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل إلا بما يجرى فيها ، اندفعت إلى الاستعمار ولا يردها عنه إلا قوة الأمم التى تأبى الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فإنها بما ارتقت فى المدنية ، وما أصلحت من شئونها الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الإقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة إلى الإعداد ، وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة إذا صرفت قواها العقلية

---

(١) العطاء أو المعروف .

والجسدية فيما هيئت له ، وأطلقت له القوة ، وهى كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة نفوسهم .

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر هى : العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لاينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار ، وإن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه إليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ماينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفى فتح المغالق التى لايستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التى لايمكن لساعد الجندى وحده أن يمهدها . وهى من الأمور المسلمة التى لايجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلاحاجة للإطالة فى بيانه غير أنى أذكر قصة كنت شاهدتها لابأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية فى تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة ، إنما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسية أن يذهب إلى باريس ويسألها المعونة على إنشاء مدارس فى جبل لبنان ، يبنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة ، فذهب إلى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنسية وطلب منه أن يكون وسيلته فى نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه ، ثم عاد إلى صاحبه وقال إن ما تخيلته ضرب من الوسواس وإن الحكومة الفرنسية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت وإعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك .

فإن كنت تريد إنشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان أملك فى المساعدة قريبا ، وإلا فارجع اشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع إلى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا.

إذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته . كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته .

فإن لم يسعَ المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابه ولقول الصدِّيق رضى الله عنه ، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوربيين إلى يوم القيامة .

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى أمرين : الأول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة إلى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والأمر الثانى سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الأوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم إلى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من أعماله ، وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره .

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الإسلامية .

أؤكد لمسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطا خطوة إلى معرفة أحوالهم على ماهى عليه ، لما خطر بباله أن يشير إلى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما ، وإن ما علق الأوهام منها فإنما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيى الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسيى الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ماتوهم فيها .

وإنى أعرض الحقيقة كما هى لايغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه ، إلى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ، ولايتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا .

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض ، وإن نسمة من نفس الرحمة مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم إلى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا إليه ، وإن منهم من يتكلم بما يرى إذا وجد سبيلا إلى الكلام ، ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب أو جريدة إذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالايعملون ، ويهرفون بما لايعرفون ولاكلام لنا فى هذر المقلدين ، وإنما كلامنا فيما يرمى إليه غرض أولئك الناظرين .

ظهر الإسلام لاروحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل إنسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار إلى العمل كَسِلاً ، وأقدر عليه وَكِلًا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده فى جميع وجوه سيره ، فإن شاء قائل أن يقول إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ، ولاتفصيل سياسة الملك ولاطرق المعيشة فى البيت ، لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعى إلى مايقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وماظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو فى المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع : « أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ أى خشونته » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الأغنياء فى الإحسان وأسوة الفقراء فى حسن الصبر .

هكذا كان الإسلام مهمازا للمسلمين يحثهم إلى جلائل الأعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى استغراق الأحوال وتقويم الأفكار ، وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ماهو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل إذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا فى دينه ، وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات ، بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ماشهد ؟ لاعجب فى ذلك فإنه نتيجة ضرورية ، ينساق إليها الأمر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه .

وا أسفا ! .. لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب فى

عقل المسلم وضعه ، وتغير فى مداركه طبعه ، وتبدلت فى فهمه حقيقته ، وانطمست فى نظره طريقته ، وحق فيه قول على كرم الله وجهه : « إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم فى الأسباب التى وصلت بالدين فى نفس المسلم إلى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه ، وتسرب فى عقائده من حيث لايشعر ما لايتصل بأصلها بل مايهدم قواعدها ويأتى على أساسها . عرضت البدع فى العقائد والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله .

□ □ □

إن صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه ، فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفى ، وكانا سواء فى علم مايجب عليهما من فرائض الإسلام ، وخصال الإيمان ، وفى طلب العلم مايلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف فى كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة ومايسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك فى معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم فى صورة أدائها ، أما ما يتعلق بسر الإخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لايخطر له ببال إلا القليل النادر ، أما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الإسلام غاية العبادات وثمرة الأعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لاتتوجه إليه عزيمته ، ولاتنصرف نحوه إرادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين فى أطراف الأرض لاترقى بهم أمة ، ولاتسمو بهم كلمة ، أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا إلى فريقين :

الأول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قل أفراده فى معظم البلاد الإسلامية ولم يبق منه إلا رسوم لايكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والآستانة فإنما حظ الذكى منهم وقليل ماهو ، أن ينظر فى كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان

مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر إليه ويملأ عينيه منه ، ولايمد يده إليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ماعرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ، ولايجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ فى فهم دينهم لايساويه فى سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الأغلب من سوء الفهم فى الدين مالاحاجة إلى عده ، ولايخفى أن ما يحصله هذا الفريق فى العلم لايظهر له أدنى أثر فى صلاح الأمة كما هو مشهود .

والفريق الثانى من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق ، إن كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذى يعده له والده ، على أن ما يحصل إما لفظ يحفظ أو خيال يخزن ، والمدار على الوصول إلى ورقة الشهادة . ومن هؤلاء من يذهبون إلى أوربا لاستكمال التربية فيها ولاغاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الأبواب ينتظرها ، فإذا مل الانتظار أو تقضى زمن العمل وجدته فى مقهى أو ملهى يسرف فى أوقاته ويفسد فى أدواته ، والصالحون منهم ، وقليل ماهم ، لا يهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الأمة ، واستثنى منهم شواذ فى كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهم وتجنى الأمم ثمار أعمالهم .

وهذا شأن الرجال مع العلم .

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم مايجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لايدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من الفقه فإنما هو بحكم العادة ، وحارس الحياء ، وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهن بالخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم إلا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعده الجنة ويمنيه السعادة .

□ □ □

أخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل ، وقعد عن العمل . ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوالى رغائب دينه .

أخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فإن أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتى به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض إلى عمل لتلافى ماعرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه .

أخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليده إلى الحاكم ووكل إليه التصرف فى شئونه ، ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه ، ومن رأى حزن الآباء إذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منها ، حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لايمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة إلى الإدبار والتخلى عنه ، من حيث أنهم تركوه وشأنه ، لايساعدونه فى حادث ، ولا يعينونه فى أمر مهم ، اللهم إلا إذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذى يحسن عملا إذا أُلجىء إليه بالرغم منه . ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم إلا ما يمس شخصه منها .

□ □ □

أما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه ، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم ، وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لإنفاقها فى إرضاء شهواتهم ، لايرعون فى ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولايتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم ومايتبع ذلك من الخصال التى مافشت فى أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ماحدث من بدع أخرى من مذاهب شتى فى العقائد ، وطرق متخالفة فى السلوك ، وآراء متناقضة فى الشرائع ، وتقليد أعمى فى جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه ، لاينظر إلى حق ، ولايفزع من باطل ، وإنما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما

يدعوه أخا له فى الإسلام فى معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين فى اعتقادهم وهى بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وأن مانزل بهم من الضر لا كاشف له ، وأنه لايمر عليهم يوم إلا والثانى شر منه . مرض سرى فى نفوسهم . وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الأخبار أو خطئهم فى فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول ، وكفى فى شناعتها قوله جل شأنه : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

□ □ □

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم ، وضعضعة فى العزائم ، وفساد فى الأعمال ، يبتدىء من البيت ، وينتهى إلى الأمة ، ويمر فى كل طبقة ، ويجول فى كل دائرة ، خصوصا من دوائر الحكومات ، ومايرمى به المسلمون من التعصب الدينى الأعمى ، فإنما عرض على أقوام فى بعض البلاد الإسلامية ، تبعا لهذه البدع الضالة ، على أننى لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته فى الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لايكذب .

هذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى فهم أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه إلا إذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه إذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواسط القرن الماضى من سنى الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث فى الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية إن شاء الله .

مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ماطرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع ، تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية

ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة ، فإذا سمعت داعيا يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها . فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟

□ □ □

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين ، سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين إذا سمع قولا فى الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون إلى شئونهم ، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه فى أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التى نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فإنه بظنه هذا يعتقد أنه غاش مغرر ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فإن أهل الوطن الواحد لايستغنى بعضهم عن بعض ، مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال ، وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لاينال إلا بحق ، والأجنبى الذى كان ينفق الواحد ويربح المائة ، يرجع إلى الاعتدال فى الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب فى استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين فى الدول الإسلامية وهى فى عنفوان قوتها ، والأجانب يطلبون الكسب فى أرجائها وهى فى أرفع مقام من عزتها .

نعم يعرض فى طريق الدعوة إلى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة فى الدين ، فإذا نجح الدواء فى موضع كان السليم أسوة للمريض فى موضع آخر ، أما السعى فى توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا إليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين .

□ □ □

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين فى حكمة الحج ويقول : إنه صلة بين المسلمين فى جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، لكن لاينبغى أن يفهم على غير وجهه ، فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون مابينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح مافسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم ، وفى مدافعة ماينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الأوربيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له وهذا أمر لا ينبغى أن يدهش أحداً فإن هذه الدولة هى أكبر دول الإسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ مابين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد ، وتهذيب الأخلاق ، بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية ، فأى شيء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين إذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو ؟

بقى الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو إن أوربا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح ، ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الأمم المسيحية ، عندما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ، ويصنع لها القوانين الإلهية . وقد قررت الشريعة الإسلامية حقوقا للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية ، وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم إلا التولية والعزل ، ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم إن أمكن ، وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم ، وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل تحت رعايتها ، وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولادخل لشىء من ذلك فى الدين ، فالسلطة المدنية هى صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها فى صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوسا ، فإن أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته

فى ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذى جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال .

إن فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق ، وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا ، فلم لايسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟

لا أظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الإسلامية الفرنسية إذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين ، فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الأوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم إن شاء الله .

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية ، وعدم اطمئنانهم إلى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين إلى حد ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم .. سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب جريدة « الأهرام » ، ومن بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لادينية لاهوتية .

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبية ، ولانزال نرى فى خطبهم وجرائدهم مايدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى أن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الأرثوذكسى ؟

هل هم الأفغانيون وإخلاص أميرهم فى مصافاة الإنجليز أشهر من أن يذكر ، ولاينفى إخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم إلى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم التونسيون ، وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم إلى السلطة الفرنسية لمجرد أنها أطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟

لعله لم يقصد إلا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله إنهم لايأتمنون مسيحيا عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم ، فأما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالأوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فإنهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الأقباط فى جميع مصالح الحكومة ، ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الإخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة من الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، إلا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو ، فإنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كما افتخر بذلك مرارا فى جريدته ، وإن كانت له هنات معروفة فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو إنشاء الجرائد أو المطابع أو إقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد ! ..

□ □ □

أما حالهم مع الأوربيين فإنا نراهم إذا أحسوا بعدل من انجليزى ذكروه ، أو وصل إليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انجليزى ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياتهم ، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمى ، فأى دليل على الثقة أكبر من هذا ؟

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنسيين ومن له بينهم أصدقاء يركن إليهم ويعتد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك .

كثيرا ما أغرى الأوربيون من فرنسيين وأمريكيين من أرباب المدارس فى مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية ، وفروا ببعضهم من القطر المصرى إلى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا أكباد آبائهم ، ومع ذلك لانزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون فى مدارس الجزويت ، وكثير من أبناء الأعيان فى مدارس الفرير فأى ائتمان يفوق هذا الائتمان ؟

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالأوربيين خصوصا فى المعاملات حتى أساء أولئك الأوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ماكان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لايزالون يأمنونهم ، ويغالون فى الاستنامة إليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟

□ □ □

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شىء مثل مايشكون من الثقة العمياء بالأجنبى ، من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص ، أو غش ، من صدق أو كذب ، من أمانة أو خيانة ، من قناعة أو طمع ، حتى آل الأمر بالناس إلى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال ! .. فهل هذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب « الأهرام » وجناب مسيو هانوتو ؟!

وأما العثمانيون من غير المصريين فإذا ارتقينا إلى الدولة وسلطانها – أيده الله – وجدنا أن نظام الدولة قاض باستخدام المسيحيين فى إدارتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب مايناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة مالم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين .

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته ، والإحسان إليه برقيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد ، وصاحب الجريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحى أن يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى أدناه منه وقبله فى مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين ، إثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة إن كان هذا فقدانها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنسيون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا وهى دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة إسلامية ، وكانت للدولة ثقة لاتتزعزع بالسياسة الانجليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة مسيو غلادستون ، فأعقبها اضطراب فى تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ، إنا نراها اليوم

تتراجع ، وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت إليها سياسة الدولة وهم مسلمون والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما كانت فى سابق الأيام دولة فتح وغلبة ، وفى أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولادخل للدين فى شيء من معاملاتها مع الأمم الأوربية .

□ □ □

امبراطور ألمانيا جاء إلى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به إلى الحد الذى اشتهر وبهر . يجيء الأمراء المسيحيون من الأوربيين إلى الآستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه فى بلاد مسيحية ، وينفق فى تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة إليه . أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفى بالرسميات ولايزيد عليها ، ولكن عهد فى معاملته مايفوق الرسمى بدرجات ، فإن سلمنا أن سياسة أوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هى كذلك ومسلموها تبع لها .

فإن قال قائل : إن حوادث الأرمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت ، وينسبون وقائعها إلى التعصب الدينى ، بل يقولون إن أسبابها مظالم جر إليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لاتدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فإن كثيرا من الأرمن فى خدمة الدولة إلى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الدينى ، فإن المسيحيين وسواهم فى الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الأوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الأقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه فى أوربا لا فى آسيا .

لا أغالى حين أقول إن المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير مايتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لايليق بكاتب مثل صاحب « الأهرام » أن يروى عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فإن ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، وإنى أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له إلا فى ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغى أن يعول على مثله فى أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه إن كان يهمه أن يتكلم فيه .

وأما أن المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الإسلام مع أنه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ماسبق إلى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام فى السياسة ، وبحث فى علاقة المسلمين مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه فى أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد إلا من ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها فى المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ماجرت إليه فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لايزالون منحطين ما داموا مسلمين ، وهو ما لايرضاه أحد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفى انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على إهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام .

أصول الإسلام

الإسلام وأصوله

للإسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان . وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته - كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته .

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث فى عوالمه ، فيذكر ماكان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض كما جاء فى آية : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون »

ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيرا فى إيقاظ العقل مايؤيد ذلك من السنة ، كما جاء فى خبر من سأل النبى ﷺ وآله : أين كان ربنا قبل السموات و الأرض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان فى عماء تحته هواء » والعماء عندهم السحاب . فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لايقيد العقل بكتاب ، ولايقف به عند باب ، ولايطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغنينى عن سرد الآيات الداعية إلى النظر فى آيات الكون : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ؟ .. « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » . « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لاتقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » .

□ □ □

فالإسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لايعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى « وهو ما نسميه بالنظام الطبيعى » فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولايغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ، وقد اتفق المسلمون – إلا قليلا ممن لايعتد برأيه فيهم – على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وأنه لايمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

□ □ □

وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الإسلام بخارق العادة وما أدراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد عليه الإسلام ، فى دعوته إلى التصديق برسالة النبى عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره . ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الأخبار سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فإذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر — هو أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على مالم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى أجوائها .

وهذا الخارق قد دعى الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ماتنتهى إليه قوتهم فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لايصلح دليلا على المدعى ، فعليهم أن يأتوا به . قال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » . وقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها[1] ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لاينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وإنما يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام

---

(١) جوانبها .

غلبهم الوهم ، ولم يضىء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات .

ثم إن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة إلى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف .

الأصل الأول للإسلام

النظر العقلى لتحصيل الإيمان : فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى . والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج ، فأية سعة لاينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟

الأصل الثانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لاينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه ما مع ما أثبته العقل .

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ماهو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولاسماء بأجرامها وأبعادها .

الأصل الثالث

البعد عن التكفير : هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ، ولايجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ! وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

الأصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتبار - وهو ألا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وألا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات - أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها - ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم . فمما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل : « لقد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين - سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا - فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » - « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ .

فى هذا يصرح الكتاب أن لله فى الأمم والأكوان سننا لاتتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين ، ما لنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية ومايحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولايتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لايعظم تسامحها معه ؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية ، أو غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى أية صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولاتعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك إلا بحفظ مانطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون – ركبوا الأسفار ، وأنفقوا الأعمار – وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك إلى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين ألا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لايقدر سعته إلا أهل العلم به ، وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا « أو آراميا » وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية إلا إنجيل متى ، فيما يقال . ألا ترى إن اسم الانجيل نفسه يونانى ؟ .. كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

□ □ □

الأصل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الإسلام أنتقل إليه – وما أجله من أصل – قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها .

هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء . بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم – مهما علا كعبه فى الإسلام – على آخر – مهما انحطت منزلته فيه – إلا حق النصيحة والإرشاد . قال تعالى فى وصف المفلحين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون

إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير – وهم المراقبون عليها – يردونها إلى السبيل السوى إذا انحرفت عنه . وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير ، ولايجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولايسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول مايعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

□ □ □

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة وماكان الناس عليه زمن النبى ﷺ . وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى ، وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى مايعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الأعمال .

فليس فى الإسلام مايسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

السلطان فى الإسلام

لكن الإسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد – فى ظاهر أمره – بحكم ، يجرى عليه فى عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لايجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلابد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة .

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى أن يكون من العلم باللغة العربية

وما معها – مما تقدم ذكره – بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة مايحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معا .

هو – على هذا – لايخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولايرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الإصابة فى الحكم ثم هو مطاع مادام على المحجة[1] ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه واذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فإذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره مالم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه .

فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه .

ولايجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الأفرنج « ثيوقراطى » أى سلطان إلهى فإن ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الإيمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالاينطبق على ما يعرفه من شرائعه ، لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهرا هما دين وشرع ، هكذا كانت سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى . ولاتزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الإشارة إليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ماتشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على مايحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم .

ثم هم يهمون فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو

---

(١) جادة الطريق أو الطريق المستقيم .

منفذها ، والإيمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالإخضاع وفى العقول بالإقناع ، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الإسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام . وعلمت أن ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان فى دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم مايشير إلى ماصنع الخلفاء العباسيون والأمويون الأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شىء آخر منه فيما بعد .

يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الإسلام ؟ .. وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره .

الأصل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنة : قالوا إن الدين الإسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » . « متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠ » ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وإنما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء . لكن فى ملكوت الله كل شىء مستطاع ولاشىء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ .. ليس القتل فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن

القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لاتسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية ما تسمعه فى الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية مايقال إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته .

فى الحرب والسلم

الإسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضاسون فى معاملة . وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » و« من آذى ذمياً فليس منا » . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام ، عندما بدا الضعف فى الإسلام – وضيق الصدر من طبع الضعيف – فذلك مما لا يلصق بطبيعته ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً .

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقى سلاماً بل سيفاً ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها ، والابن وأبيه والإسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى » فهو فى اشتداده على المهددين لأمته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

فأنت ترى الإسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشىء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم إلى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وإن كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة .

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ .. كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى إلى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الإسلام له فى شىء من عمله ، إلا أن يحدث شغباً ، أو يفسد أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد . وإصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الأصل السابع

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة : أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها ، وهى منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من

الظل ، وصاحبته فى العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى « ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهى كما هى . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح ، الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح الغاوى ، ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؟ .. أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أويضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها ؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال ، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم ، أو قاعدة لصناعة ؟ .. إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد ، أو يميل إلى رأى غير الذى يجد ؟ .. أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لأطلت على القارىء أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب على أن أختم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الأصل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصحة : الحياة فى الإسلام مقدمة على الدين .. أوامر الحنيفية السمَحةِ إن كانت تختطف العبد إلى ربه ، وتملأ قلبه من رهبة ، وتفعم أمله من رغبة . فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل : « بع ما تملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

الرخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به ، إلا إذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعداً .

السعى إلى الجمعة واجب إلا إذا كان هناك وحل غزير ، أو مطر كثير ، أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الأبدان ، مقدمة على صحة الأديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

الزينة والطيبات : أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين* قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون* قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (سورة الأعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس* إن ربكم لرءوف رحيم* والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » ثم قال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل) .

الاقتصاد : ووضع قانوناً للإنفاق وحفظ المال فى قوله : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا* ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (سورة الإسراء) .

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا إذ قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض* إن الله لا يحب المفسدين » (سورة القصص) .

فترى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للإنسان أجزاء حقيقية واعتبره حيواناً ناطقاً لا جسمانياً صرفاً ولا ملكوتياً بحتاً ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى . أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » إلى منتهاه ؟ .. والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً .

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

□ □ □

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن

الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع[1] لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب الأرض ، ولا تكتفى عن الكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها إلى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهى الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات .

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره إلى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه ؟ .. كيف يشكر الله إذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ؟ .. أنظر إلى لطف الإشارة فى الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم .

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شىء من وسائل ذلك إلا بالعلم — فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأى لسان فإذا لاقاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى أى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا إليه وكمشوا وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، إذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ألم يأتهم عن ربهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً

---

(١) الشجاع ، الماضى العزيمة .

كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً، وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » إن كان فى سند لفظه إلى النبى ﷺ مقال فسند معناه متواتر فإنه سند القرآن نفسه ، فإن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ، ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى ﷺ .

لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه ، وإن كان فى أول أمره مطلوباً لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيماً ولذة ، ولست فى حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس . فالحيوان يعرفها بله الإنسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول ، وإحراز المعقول وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟.. على أن العلم كان من ضرورات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

نتائج هذه الأصول

إلى أين أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين ؟.. وماذا كان أثرها فى أسلافهم الأولين ؟ ..

فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية أخرى ، والإسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : « إن المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى تريبا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع » .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم فى أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع .

إشتغال المسلمون بالعلوم الأدبية والعقلية

إشتغالهم بالعلوم الأدبية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة على بن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالاً مع ما يدعوهم إليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وإن كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وإنشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سأل عنه دل عليه فذهب إليه فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة

العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وإنما تناول مباحاً ، وتمتع برخصة آتاه الله إياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها .

إشتغالهم بالعلوم الكونية

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ، ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصورعاصمة الملك إلى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ، وأخذ المنصور أيضاً ينشىء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية ، وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية ، فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول ﷺ .

إنشاؤهم دور الكتب

وقد أخذت دول الإسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد ، منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (إحداهما) من الفضة يقال إن صانعها بطليموس نفسه وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرنز . ومكتبة الخلفاء فى أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان فى أسبانيا

وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال إن سلطان بخارى دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها . وكان حنين بن اسحق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

إنشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس . تقول « على سعتها » لأنها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار : فى المغول ، وفى التتار ، من جهة المشرق . فى مراكش ، فى فاس ، فى أسبانيا من جهة المغرب .

وكانت طريقة الأساتذة فى التدريس أن كل مدرس يعد درسنه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتباً وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شىء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ألا ينشر منها شىء إلا بإذن ، على أنى لا أعلم شيئاً من ذلك وقع فى الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً .

نرجع إلى الكلام فى المدارس الإسلامية : يقول « جيبون » فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من أثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين « هو نظام الملك » مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع الذى يصرف فى شئونها خمسة

عشر ألف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » .

انقسمت الممالك الإسلامية فى زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع : كان العباسيون فى آسيا (الشرق) ، والأمويون فى الأندلس من أوربا (الغرب) ، والفاطميون فى مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصوراً على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائماً فى ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك ، ومرصد جيرالد فى الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الإدراك .

جميع المدارس فى البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى القاهرة ، وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد أسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، فى الأحوال الاجتماعية ، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم فى أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها . فكان المعلمون لأبناء العظماء فى أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب وإكتشافها

كان علم العرب فى أول الأمر يونانياً ، ولكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمناً

طويلاً كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى .

قالوا : إن « باكون » هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصمين وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى أوربا وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى اواخر القرن الثانى من الهجرة .

أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة ، وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً » وعند الأوربى إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « اقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالماً » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل ؟

قال « ديلامبر » فى تاريخ علم الهيئة : « إذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد فى العرب عدداً كبيراً غير محصور » وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجرباً واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عندِ العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى من أصدق الأدلة فى الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف .

و العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض .

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية .

ولا يمكننى فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج إلى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكننى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين .

« تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فإن هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها . قال الخازنى إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : إن الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا أنه مر فى صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ، ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الإنسان أنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ، ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب فى صور الأنواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك إنساناً » .

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى إلى نقض أصل الدين وقال : إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذى يبقى هو أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص فإنه قال كما قال أرسطو وغيره : إن الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول . وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه كما أخطأوا فى قولهم عنه أنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره والكل يرجع إليه بمعنى أنه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فإن ابن رشد كان مسلماً يعرف أن الإسلام لا ينافى العلم وإنما ينافى هذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى إليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب إلى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فإن فى كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : « إن العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للإنسانية منها سوى النظر إليها – صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها

إلى كمالها الذى أعدت له . وليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل - فى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان ينبى عليهما العلم - إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائباً لأن كرسيه كان قد انتقل إلى فرنسا فى أفنيون نحو سبعين سنة ، فدب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به القرار هناك ، إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا فى القرن الثانى عشر وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا » اهـ .

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الإسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وأن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرناً فى أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً » .

هذا النماء والزكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وأعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « إن شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد » .

تشجيع العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم أنهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين إلى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الإسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ .. لعلك لا تجده أبداً .

كان أهل العلم والأدب عامة يحدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، وأضرب المثل بالشيخ أبى العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرداس – صاحب حلب – خرج إلى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب ، سعوا إلى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ .. قال : الأمير – أطال الله بقاءه – كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئاً من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتاً فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتفٍ .

إزالة شبهتين

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم فى آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم إياهم بالألقاب ، بل واحتقارهم فى بعض الأحيان . وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع – مما يكره أهل العلم – لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة . ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه ، ويرون أن النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الأضطهاد فى شىء ، وإنما هى نفرة الإنسان مما لا يعرف ، مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله إلى حيث يشاء .

يقول آخرون : إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره فى غنى عما يراه هو حقاً له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع ، صوناً له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ .. وألا ينشأ شىء منها إلا بإذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ .. كلا ، إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها فى أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ .. إن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى المتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الإمام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه : « رميت لكل الناس حباً فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد) فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأساً ! ..

إذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه إلا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن الغيرة عليه ليست هى الباعث لهم

على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لإهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الإسلام ، اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا .

هذه طبيعة الدين الإسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العالم الشرقى والغربى وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ؟ .. وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟ أفلا يبسم الإسلام عجباً وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، إن لم يحسبه فى أحبائه ، عند ما يراه يسدد سهمه إليه ، ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟ .

الإسلام في أوائل القرن العشرين

الإحتجاج بالمسلمين على الإسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومى العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس تبعاً لهم ؟ .. أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ .. ألم يسمع بأن رجلاً فى بلاد اسلامية غير البلاد المصرية[1] كتب مقالاً فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالاً بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية ، وقال إنه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزىء به أو مايقرب من هذا – وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله – فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا : إنه مرق من الدين ، أو جاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن ! .. فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل

(١) السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى .

إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف[1] فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وإنما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان ، فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ .. وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وإنه إنما يريد الغض من علوم الدين[2] ألم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولاً يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم يحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وإن كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان ، أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخباً ، ولجباً ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، إذا قيل إنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفاً من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى ألا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة فى زعمهم .

---

(١) الشيخ عليش

(٢) يشير إلى نفسه ، إذ أنه هو المقصود

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم؟ .. لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عندما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلماً من شاطىء الأطلانطيقى ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهى :

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار .

اللهم إلا فئة[1] زعمت إنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدراً من المقلدين ، وإن أنكرت كثيراً من البدع ، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه ، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء .

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء فى فهمها . وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيها أحجموا عن ابداء الرأى ، اجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها إلى أن تتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدول العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ ... فقال قائل لشيخ الرواق : إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شرط الواقف . فقال : إننى لا أقتنع بما فى تلك الكتب ، وإنما الذى يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال إن هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله . وإذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التى ينتهى إليها وأن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : إنما أريد نصا فقهياً ، لا دليلاً عقلياً .

وإذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الإخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ،

---

(١) المقصود فئة الوهابيين .

وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك إلى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس إليه ؟ ... قالوا : ذلك ليس إلينا ، ولا فرضه الله علينا وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فإن لم يفعلوا – ولن يفعلوا – فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد فى الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وإن الإسلام لابد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع فى نفس حركة إلى عمل ؟!

رأى رينان فى الإسلام

هذا الجمود – الذى لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتاباً – هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم ، نقلته عنه الجامعة « على أننى أخشى أن يثبت الدين الإسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكننى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال إلى المسامحة ، إلا أننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فإذا اختنقت قضى على الدين الإسلامى . ذلك أنه من الثابت الآن أمران – الأول : أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة إليه . والثانى : أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين ، وإلا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام ، بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحاً فى سعيهم ، أو نجاحاً فى أعمالهم ؟ .. من أين يكون هذا الجمود إن لم يكن من طبيعة الدين ؟ .. ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ .. فإن لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الاضطهاد من لوازم الدين الإسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم

أو اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الأمور كاف إذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره فما قولك فى هذا ؟

الجواب

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين إلى غير الدين – إلى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) .

فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس .

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين ، فإنى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم « طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون* ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم* ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم*إنهم ألفوا آباءهم ضالين* فهم على آثارهم يهرعون » .

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام ، وقد رأيت صورة الإسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلاً يرجع إليه شيء

مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته « رينان » وغيره . وإنما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين — هو السياسة .

لم أر كالإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة[1] من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بنسبه وقالوا : نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه فى شيء إلا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم .

انظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سبباً فيما صار إليه أهله : كان الإسلام ديناً عربياً ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى ﷺ فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهما من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانة من الملك ، وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره .

أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرِّف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ .. فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا

---

(١) الخشارة ، الردىء وما لاخير فيه ، كخشارة الشعير بدون لب .

عنه يد المعونة ، وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يتدرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعللوه ، أو متداعياً ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس[1] الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وإن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وإن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم ، وغلاً للأيدى عن العمل ، والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى – أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم وبيانها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة – سياسة الظلمة وأهل الأثرة – هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السماوات ، وأخلدت به إلى يأس

---

(١) الركس هو رد الشىء مقلوباً . يقول تعالى : « أركسهم بما كسبوا » أى ردهم إلى كفرهم .

يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام ، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً ، والقرآن شاهد صادق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لابد أن تزول .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وإنما يحسن إجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سراً من أسراره فى خليقته ، أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم إليها – أريد حاجتهم فى فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم . فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا فى

الدليل فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأية حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون فى كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر إلا اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وإن لم يصلوا منها إلى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقد كتب السلف الأولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشافعى رحمه الله تعالى أو بعض كتب الأمهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق . تجد جزءاً من الكتاب فى قطر وجزءه الآخر فى قطرآخر ، فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلاً بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره وقلة الالتفات إلى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والإجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد ، وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله

وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود فى بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب إمام آخر ، وإذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها فى تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم فى بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذى ينتسبون إليه . يضلل بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدى إلى الجحود .

كان الاختلاف فى العقائد على نحو الاختلاف فى الفتيا تخالف أشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد ، فلما جاء دور الجمود – دور السياسة – أخذ المتخالفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً فما استطاعوا وإنما هو تمييز وهمى ، وخلف فى أكثر المسائل لفظى . وإنما هى الشهوات وضروب السياسات . أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع حتى آل الأمر إلى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل[1] من عدة سنين : إنه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها ، وقال إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيراً على الناس ودفعاً للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ .. لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه . أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم

---

(١) الشيخ محمد عبده ، فهو يشير إلى نفسه .

ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون إليها بأزمة القوة أو الأهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر إلى عسر ، حمل الناس على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام اسلاماً سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها .

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ .. فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوماً أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك ؟ .. فأجاب : إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها إلى بعض فى معرفة الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فإذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل

بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لاصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلاً وإن لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه – قال : سبحان الله ، هل فعل ذلك أحد من المشائخ ؟.. يريد ألا يأتى شيئاً إلا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يداً بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه ثم إذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً ، وأنك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصاً عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى : إنه لا فائدة فى ذلك قطعاً ، وهو تعب فى غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ .. ولم ينظر فى الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلاً لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الإلهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر ، وإن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو إن هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه .. كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعاً من الإخلال بالدين ، وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً فى سبيل الله .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريراً للمسائل وإملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم . قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله ، اعتماداً على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ، وهل يرتاب من له أدنى إدراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟ .

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، وأشد ضرراً منه الجمود فى العقيدة : نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وأن العقل إن لم يستقل وحده فى إدراك ما لابد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقاً وتمزقوا شيعاً كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم إلى أنه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد ويا ليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : أن عقيدة كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أمييهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وإن لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم .

انسحب التساهل فى الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من

تقدم من يعرف ومن لا يعرف – وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غداً إن شاء الله .

سأل سائل الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المسجد يوم الجمعة – ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته – فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ .. كلا .. حدث قيل وقال ، وكثرة تساؤل ، ودخلت السياسة ثم قيل : إن الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا فى أذهانَ الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح فى كتابه وسنة نبيه ﷺ المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه : « ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ .. أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين وإذا دعى إلى ترك المنكر نفر وزجر وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم ، فى الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون .

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه . ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلموا المدارس النظامية

ثم إن الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما فى

مدارس الحكومات الإسلامية وإما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجاً عنها .
لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فإنى لا أعرف كثيراً من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً ، وهم أشد تمسكاً بلب الدين الإسلامى وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وإنما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية .
سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم أباحتا للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الإسلامى وأباحتا لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وألا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلاميذ المدارس الأجنبية

هؤلاء التلاميذ إن كانوا فى مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الإسلامى فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسرى إلى عقائدهم شىء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مراراً . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لأولئك الآباء شىء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلاً عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شىء صعباً وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من

لا يريدون الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم إلا زاجرا عن خير أو دافعاً إلى شر ، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغبياء الدين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الإسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شىء من البقية فهؤلاء يتسأون على شىء من المعارف فى الفنون المختلفة ، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الإنسانى ، ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها ، فلو سمع شيئاً غيرها أنكره وظنه مخالفاً للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى إلى أى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيث وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شىء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آداباً فى غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون إلى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظاً » فإذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فإنما ينثر الألفاظ نثراً لا يرجع فيها إلى أصل ثابت ، ولا إلى علم صحيح . ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى إلى المفسدة ، وهو يشعر – أو لا يشعر – على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن إليه نفوسهم ،

ولذاقوا طعم العلم مأدوماً بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع إليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفحات السابقة . ولن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث – مرض الجمود على الموجود – وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة إلى إعادة ذلك .

ثم إننا أشرنا أيضاً إلى بعض الأسباب التى جلبت هذا الحمود على المسلمين لا على الإسلام ، وأن محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً . وهذا الثانى كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه ؟

جاء فى الكتاب المبين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ذلك الذكر هو الذكر الحكيم – هو القرآن الذى « أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هو كما قال : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل إليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولابد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره . فيتبلج ضياؤه لأعين أوليائه . إن شاء الله تعالى .

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس[1] الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به إليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الإيمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شيء كما قدمنا .

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه ، ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ؛ وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا — أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ قد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا « وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم » ويفزعوا إلى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم إلى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : إن الإسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبداً ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ، ولطف الله

---

(١) الظلام أو الظلمات .

بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ، ويدعون إليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لابد أن يعود نوره إلى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى إليها — العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس إلا إليه ، ولا يعتمد إلا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض أعداء القرآن : إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة إلا إلى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) .

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ .. إن الذى مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام (أى الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً ، وإنما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وإن آيات الله فى الكون — وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير — تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد على عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة ، فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلاً بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ؟ .. إن زمناً كهذا لا يكفى — وقد تبين أنه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه . ولِمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به إلى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً ، وقفل راجعاً ، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله

اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناوُل علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف[1] الغيوب متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت[2] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته » .

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليماً ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ؛ فإنما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس ، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك أنك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر فى الغايات ، والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات – والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ والآم ، وهلع واطمئنان ، وشماس[3] وإذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين تقع على القريب : وأخرى تمد إلى البعيد ، وهى فى حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بأحدهما ، حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى فالعلم الصحيح مقوم الوجدان والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان ، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين ، والوجود الفرد وجودين .

---

(١) الظلمة

(٢) جبهه ، أى ضرب جبهته ورده .

(٣) الشماس ضد الإذعان ، وتعنى الرفض أو عدم القبول . يقال رجل شموس ، أى صعب الخلق .

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ، فتقول إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنى أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين - إما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علماً وما هى به ، وإما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هى منه فى شىء .

لابد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية فى التدريج « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً * إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وهو خير الناصرين .

الإسلام ومدنية أوربا

تمهيد

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته مجلة الجامعة وهو « إن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة » .

ليس من السهل علىَّ أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول – وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية – وإنما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ .. وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلماً ؟ .. أم يسمى غل الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرماً ؟ .. هل تعد مساكنة جناب البابا لملك ايطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسى المملكة الإيطالية وكرسى المملكة البابوية – فى عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحاً من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب

الدين – تساهلاً من العلم مع الدين ، لا تسامحاً من الدين مع العلم ، بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له فى أغلبها .

إقتباس أوروبا من مدنية الإسلام

السبب الأول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجاباً له حتى يقوى . ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما إلى المدنية التى كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الإنسانى يتلمس السبيل إلى الخلاص ، وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة ، فى أدنى الأشياء وأعلاها ، حتى أنه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسس القديس أنطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس . وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه .

لقائل أن يقول : إن القسس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيماً مع العلم (أوالصناعة) .

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين ، إلا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك .

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون إليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالاً ، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الدينى « البروتستانت » فانضم دعاة العلم إليهم ظناً منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم . وكان منهم « ايراسم » الشهير ، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل « ايراسم » ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الإصلاح لم تنتظر إلا أن تأمن من عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم قال أحد أفاضل مؤرخيهم : « وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لإفناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أية طائفة كانت ، من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين

ورؤسائه مما هو معلوم ، وإنما أنبه القارىء إلى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم أن الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً ، ولو شاء ألا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان ، وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه . والأمة الفرنسية — التى كانت تدعى بنت الكنيسة — أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت — فى خطبة من خطبه التى ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية — ما نصه مترجماً : « إذا كان الدين المسيحى ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الرومانى) أوالكثلكة التى دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً » .

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فإن وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف — إن شاء الله — بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والإسلام .

عود إلى سماحة الإسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدى

خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم – والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضىَ والحكيم ، وكل يرى فى صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به – وهكذا أدخل به بيتاًمن بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والإمام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث ، وعمرو ابن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناسَ له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد – أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الأحاديث .

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لافرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف إلى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء ، شأن الأحرار فى الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب ، فلا يقول أحد

منهم لآخر إنه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى ، إلا إذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الإخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله – تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه – وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الأغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلواً فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أخطىء القارىء إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك – أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وأن الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل

بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ .. لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الإمام الغزالى إلى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزماناً هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « إحياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية – وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين – إنه ضال مضل ، وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة .

إهمال آثار السلف

أهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر فى أقوال سلفهم ، حتى إنك لا تجد اليوم فى أيديهم كتاباً من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماتريدى ، ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات أبى بكر الباقلانى أو أبى اسحق الاسفراييني ، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس . منها تفسير الطبرى ، وتفسير أبى مسلم الأصفهانى ، وتفسير القرطبى ، وتفسير الجصاص ، وتفسير الغزالى ، وتفسير أبى بكر بن العربى وكثير غيرها ، وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها على دين ، وأن لها فيه سلفاً ، أن تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان ؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث فى أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه ﷺ يأخذ ما فيها بالتسليم . فإذا

ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقاً عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعى عنه ما يقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سورية والحجار وتونس والجزائر ، وقل جدا فى المغرب الأقصى ، ولم يبق الاهتمام به إلا فى بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل – وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم فى عمل لايسد من حاجتهم – وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء ، وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليماً دينياً ينظر إليه – وإما للفتور والخمود ، اللذين نشآ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطباً للنبى عليه الصلاة والسلام : « إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » .

فهذا الصنف من المسلمين – وهو معظمهم – قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فإذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعاً من دين الإسلام – دين محمد ﷺ – دين القرآن – دين السنة الثابتة – دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟

متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه

الحق أقول – والحس يؤيدنى : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم فى الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية ، توسعوا فى العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدوا فى المحافظة عليه

أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش فى وجوههم . ولذلك يصرخون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحاً مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد فى إبادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن فى صنع آلات الهلاك ، مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء فى الإعدام بمجرد التهمة ، فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا فى أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ السخيفة فى وجوه أهله ، وقذفهم بشىء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهاداً – إنما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذى ينجع فى شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردهم إلى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه ، كأن الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة .

الدعاة فى الإسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى إلى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ .. لا .. إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم – فما يزيد – فى قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة

(نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وإنما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين فى نظر المنصف .

المقلِّد دون المقلَّد

ربما يقول القائل : إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل إليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسع فى علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسماً ينقطع إلى الآخرة فى الأديار والصوامع ، وقسماً يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان ؟ .. وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ .. وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم إلى حيث لا يعلمون ؟ .. ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : إنك قد نسيت أن المقلِّد يكون دائماً أحط حالاً وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلد إلى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لاسيما انهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى إلى أن يستريح ، فينهض إلى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى

الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين ، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم فقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا .

الإصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاق فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام ؟ .. كل يقول : دينى ملتى ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الإسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً ، وصداً عما يدعو إليه هؤلاء ؟

ويمكننى أن أقول له : إن الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء وقلما يدرسون شيئاً من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث فى الأرض . وأما الصادقون على قلتهم . فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصاً فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولاسيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا . ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب فى وقت قريب فانتظر .

قد يقول القائل : لم لَمْ يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال أمدها عليهم ؟ .. ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ .. أليس ذلك سبيلاً لمؤاخذة الإسلام وحجة عليه ؟

وأقول له : إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، إلى ما فيه صلاح الجمعية الإنسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم

استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره . وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الإنصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهورالمسيحيين إذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلاً عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطاً فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق . ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب ، ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر إليهم فيه الإنسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً .

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والإفراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم .

الفهرست

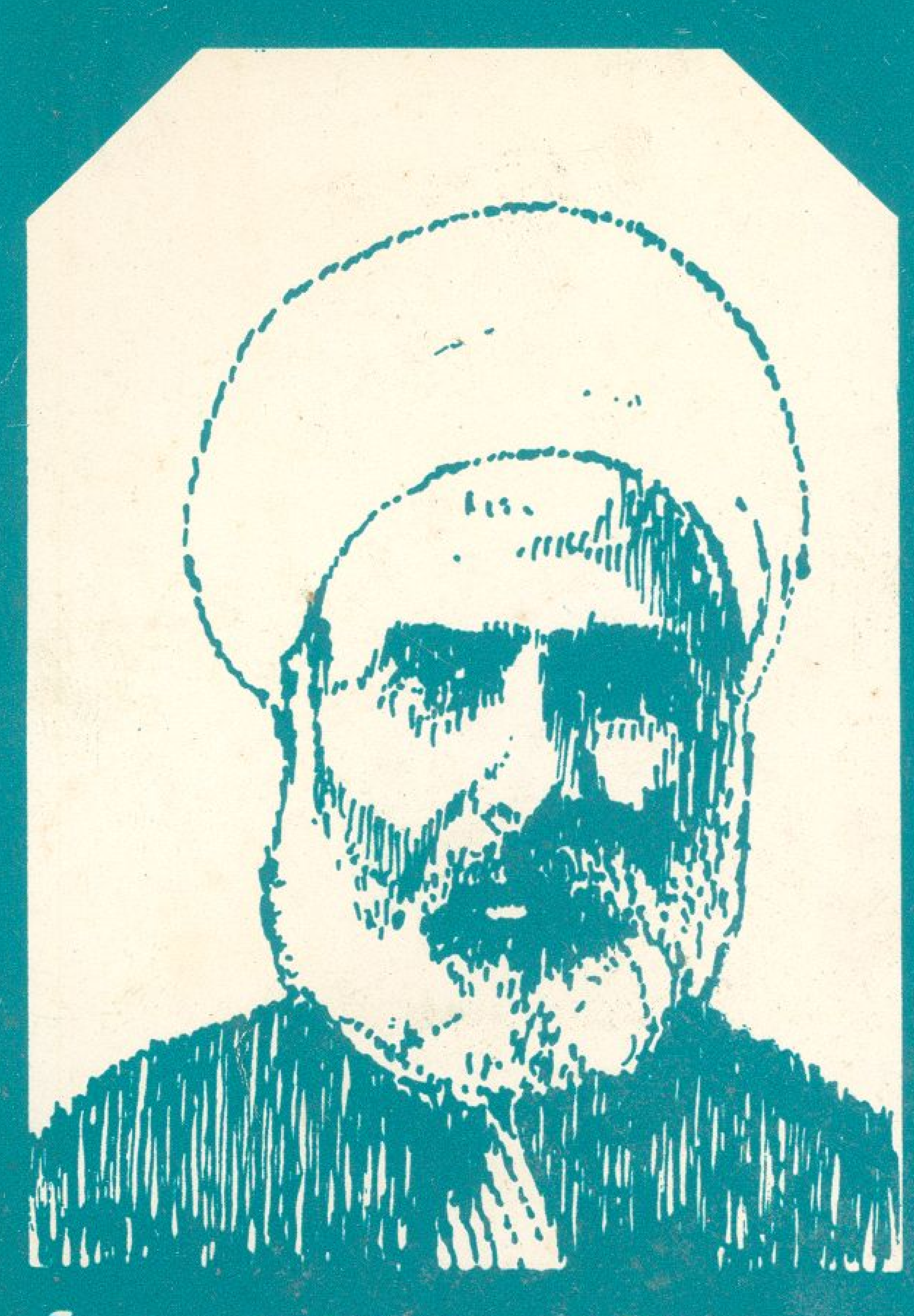
الإسلام ومدنية أوربا

رقم الايداع

٨٧ / ٣٤٤٥

طبعت بمطابع روزاليوسف

الإسلام دين العلم والمدنيّة



الشيخ محمّد عبدُه

لقد ذهب محمد عبده فى دراسته لأصول الاسلام إلى أن الإسلام قد أطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد . فهل يفهم ذلك من نصبوا أنفسهم لإصدار الأحكام الجائرة الظالمة والتى تذكرنا بأحكام محاكم التفتيش . ومن المؤسف له أننا نجد هذه الأحكام الجائرة . الأحكام الصادرة بالتكفير . تجىء من أناس يعيشون فى القرن العشرين منهم من قضى نحبه ومنهم مالا يزال على قيد الحياة .

ان الإسلام قد أطلق العنان للعقل . ولا يقيد العقل بكتاب ولا يقف به عند باب ولا يطالبه فيه بحساب . ويعطينا محمد عبده مثالا يؤيد به كلامه . فيما جاء فى خبر من سأل النبى ﷺ : أين كان ربنا قبل السماوات والأرض ؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام كان فى عماء تحته هواء . والعماء عنده السحاب

د/ عاطف العراقى

